

التاريخ القديم والوسيط والحديث لنوبة الجبال: (قبائل نوبة جبال النوبة بولاية جنوب كردفان)

الجزء الأول – التاريخ القديم

بقلم: ناني أوبت انده*

ترجمة: غانم سليمان غانم**

مقدمة:

النوبة هم مجموعة من القبائل تتشارك السكن في منطقة جغرافية محددة في ولاية جنوب كردفان والمعروفة باسم: "جبال النوبة". إن أصول معظم قبائل النوبة مجهوله ولكن ليس من شك أنهم أفارقة. وقد وصلوا لجبال النوبة من مناطق مختلفة خلال آلاف السنين. يوجد حالياً أكثر من خمسين قبيلة تنتمي لقومية النوبة. ويبلغ اجمالي تعدادهم حوالي مليونان ونصف (2.5) مليون نسمة.

كانت معظم قبائل النوبة حتى حقبة الاستعمار التركي المصري خلال القرن التاسع عشر تعيش في عزلة نسبية. أهم الأحداث المؤثرة التي شكلت تاريخ قبائل النوبة هي حقبة حكم الإمام المهدي وخليفته القصيرة والتي اتسمت بالعنف وحقبة الاستعمار البريطاني. نال السودان استقلاله في عام 1956م ومنذ الستينيات من القرن الماضي كان النوبة على خلاف مع الحكومات الوطنية المتعاقبة. اعتباراً من عام 1987م وحتى هذا التاريخ تعتبر منطقة جبال النوبة ميدان لإحدي الحروب الأهلية التي استمرت لوقت طويل مستنزفة موارد البلاد.

يعمل النوبة بشكل تقليدي مزارعين في القطاع الزراعي وهم مستخدمون حالياً في العديد من القطاعات الاقتصادية والمرافق الحكومية ومنذ بداية القرن العشرين أسهمت هجرات العمالة في تشكيل مجتمعات نوبة كبيرة في المدن الكبيرة في السودان مثل الأبيض والخرطوم وبورتسودان. في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي التحق مئات الآلاف من النازحين النوبة بسبب العنف الحرب الأهلية بالعمالة المهاجرة السابقة. بتوقف الحرب الأهلية في جبال النوبة رسمياً في يناير 2002م عاد العديد من النازحين إلى جبال النوبة.

تهدف اللحات التاريخية التالية والمختصرة إلى تقديم منظور شامل لتاريخ النوبة. ولقد استشهدت واقتبست من العديد من المصادر وقمت كذلك باستشارة العديد من العلماء الذين يعتبرون مراجع وخبراء في مجالاتهم المختلفة بالنظر للتاريخ القديم للنوبة. وبالنظر لمعظم أحداث التاريخ الحديث فقد اعتمدت بشكل كبير على المقابلات مع رجالات النوبة الذين كانوا منخرطين بشكل لصيق بالتطورات والأحداث التي أدت إلى الحرب في جبال النوبة وبالتالي توقيع اتفاقية السلام الشامل في عام 2004م.

1 – اسم النوبة

لعدة قرون كان يطلق على المنطقة الجغرافية التي تعيش فيها قبائل النوبة بـ "بلاد النوبة". وكانت مملكة تقلي (وهي مملكة نوبة صرفة) تعرف بشكل متميز مثل بقية ممالك النوبة في جبال النوبة ولكن بالنسبة للقبائل العربية التي تعيش حول المنطقة فقد كانت تُطلق على جميع سكان الجبال اسم "النوبة". وقام الأوروبيون، بالاعتماد على المعلومات التي تلقوها من القبائل العربية، باستخدام نفس الاسم.

كانت قبائل النوبة حتى وقت قريب تستخدم اسمها القبلي وكان العديد منهم لا يعتبرون أنفسهم في حقيقة الأمر نوبة. وبكلمات الراحل الأستاذ/يوسف كوة مكي:

"من الأمور العجيبة: عندما تكون في جبال النوبة أنت تعرف قبيلتك فقط. فنحن على سبيل المثال من قبيلة الميري. لذلك عندما نسأل: "من هم النوبة؟" كنا نحاول أن نقول: "القبائل الأخرى - ليس نحن". فقط عندما نخرج من جبال النوبة للشمال أو الجنوب أو الغرب عَرَفْنَا بأننا كلنا نوبة" **1**.

يرجي الملاحظة أن كلمة "نحاول" هنا: كما لاحظ عالم اللسانيات والأنثروبولوجيا الإجتماعية آيه. سي. استيفنس (A.C. Stevenson) تعني أن: "بعض المتعلمين من النوبة يخجلون من رسم أنفسهم بهذا الاسم ويحاولون استخدامه لنعث سكان الجبال الريفيين: بالنسبة لهم فهم "نوبة" إشارة للحط من المكانة الاجتماعية" **2**.

تفترض إحدى النظريات القديمة بأن هناك علاقة بين "نوبة" والاسم المصري القديم "نوب" (nebu) الذي يعني الذهب. كانت الأرض الواقعة جنوب مصر في الأزمنة القديمة تنتج كميات كبيرة من الذهب ولذلك كان السكان معدنين للذهب، و تزعم بعض الإدعاءات أن "أرض الذهب" كانت تسمى نوبيا (Nubia)، وذلك لم يحدث، وأن سكانها نوبة. باختصار: كل هذه مزاعم سخيفة **3**. ومن ثم هناك تفسير آيه. جي. آر كل (A.J. Arkell)، وهو يقول:

"يبدو أن اسم النوبة مشتق، مثل العديد من الأسماء القبلية الأخرى في السودان (البرتي، البرتا، البرقو وغيرهم)، من كلمة من لغتهم الخاصة تعني "العبيد" **4**.

بالتأكيد هناك علاقة و إرتباط بين الاسم والمسمى: لقد تم قهر قبائل النوبة بواسطة تجار الرقيق لعدة قرون وبالنسبة للعرب أصبح اسم "النوبة" مرادفاً إلى حد ما لـ "العبيد". ونظراً لأن آر كل لم يذكر في أى لغة من لغات قبائل النوبة العديدة ما يبين أن الاسم يعني "عبيد"، فهناك القليل الذي يمكن أن نقوله حول نظريته باستثناء الاستشهاد بعالم الأنثروبولوجيا الدكتور اس. اف. نادل (S.F. Nadel) الذي يقول:

"لن أحاول متابعة أصل ومصدر هذا الاسم أو التكهن بمعناه الأصلي. يكفي القول بأنه لا يوجد في أى لغة من لغات المجموعات (القبائل) التي قمت بدراستها مصطلح (اسم) نوبة" **5**.

2 – الممالك القديمة في ضفاف النيل

1 – النوبة

هناك "النوبة" وهناك "النوبيون"، وهذا يسبب كثيراً من الالتباس. "النوبة" قبائل تعيش في جبال النوبة بولاية جنوب كردفان. و"النوبيون" يعيشون حالياً على ضفاف النيل في الحدود بين السودان ومصر. وقد تم تهجير العديد منهم عندما قام الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ببناء السد العالي. يعتبر "النوبيون" من أحفاد سكان الممالك النوبية العظيمة: كوش، مروى، نبتة، المقرة (دنقلا) وعلوة.

في هذا المقال سأقوم أولاً باستعراض تاريخ النوبيين ومن ثم سأتناول أي مراثيات سائدة حالياً فيما يتعلق بالعلاقة بين نوبة جبال كردفان والممالك النوبية القديمة.

يستخدم اسم "بلاد النوبيين" لوصف الأرض الممتدة على ضفاف النيل والكائنة جنوب مصر والمقسمة إلى "بلاد النوبيين السفلى"، الواقعة في المنطقة بين الشلالين الأول والثاني، و"بلاد النوبيين العليا" وصفا للمنطقة الواقعة جنوب الشلال الثاني. على أية حال، ومن منظور تاريخي لم توجد أبدا مملكة أو قبيلة أو حضارة باسم النوبيين. إن استخدام اسم بلاد "النوبيين" للدلالة على المنطقة يبدو أنه نشأ عند قيام رسامي الأطالس الأوروبيون في بواكير عصر النهضة الذين قاموا برسم الخرائط على أساس أعمال عالم الفلك والجغرافي كلاديوس بطليموس (Claudius Ptolemaeus) - 90 - 168 قبل الميلاد **6**.

الملوك المصريين القدماء (قبل الأسر الفرعونية ومن الأسرة الفرعونية الأولى) كانوا يطلقون على سكان المناطق التي تقع جنوب ممالكهم بـ "تاستي" أو رماة الحدق لمهارتهم في رمي السهام. كان "التاستي" منظمين بشكل جيد ولم تكن حضارتهم مختلفة عن المصريين الأوائل. على أية حال فهم قد اندثروا.

بقيام الأسرة الفرعونية السادسة (حوالي 2323 – 2150 قبل الميلاد) كان المصريون يطلقون اسم واوات (*Wawat*) وارتجيت (*Irtjet*) وستجيو (*Setju*) للدلالة على الممالك الصغيرة المتعددة في بلاد النوبيين السفلى. كما كانوا يطلقون اسم يام (*Yam*) على مملكة تقع في بلاد النوبيين العليا. وكانت هناك علاقات تجارية بين مملكة يام ومصر حينئذ.

عندما حلت **المملكة الوسطى** مكان المملكة القديمة في مصر (حوالي 2134 – 2040 قبل الميلاد) حدثت كذلك تغيرات سياسية في بلاد النوبيين العليا. واختفت "مملكة يام" من نصوص التاريخ المصري وظهرت مملكة كوش التي كان المصريون يصفونها بـ "الحقيرة" أو "الوضيعة". أصبحت مملكة كوش قوة رئيسية في الجنوب واستولت على بلاد النوبيين السفلى حوالي 1700 قبل الميلاد.

تغيرت الفرص مرة أخرى وقام مصريو المملكة الجديدة (حوالي 1532 – 1070 قبل الميلاد) بهزيمة مملكة كوش هزيمة ساحقة وقاموا بتدمير عاصمتها كرمة. بحلول نهاية حكم الملك تحتمس الأول في عام 1520 قبل الميلاد تم إلحاق جميع بلاد النوبيين بمصر وقام المصريون بتأسيس إدارة جديدة ومراكز دينية في نبتة، وتبنت صفوة النوبيين عبادة الآلهة المصرية ونظام الكتابة الهيروغليفية. وبهذه الطريقة تمت المحافظة على العديد من آثار الثقافة المصرية القديمة لعدة قرون بينما تراجعت قوة مصر تدريجياً.

بحلول عام 800 قبل الميلاد تقسمت مصر إلى دويلات متحاربة وفي عام 747 قبل الميلاد قام الملك الكوشي بعانخي (بيا) بالزحف نحو الشمال من عاصمة مملكته في نبتة وقام بتوحيد مصر. قام الحكام الكوشيين بحكم كل من بلاد النوبيين ومصر حتي غزو الجيش الآشوري في عام 667 قبل الميلاد وهرب الملك النوبي إلى نبتة وتمت هزيمته تماماً في عام 664 قبل الميلاد.

في عام 656 قبل الميلاد، قام بسماتيك الأول، مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (أسرة سايات) (*Saite*) بتوحيد مصر. وفي عام 591 قبل الميلاد قام خلفه بسماتيك الثاني بغزو مملكة كوش وتدمير وحرق نبتة. قام ملوك كوش بنقل عاصمتهم إلى مروى (*Meroë*) حيث استمروا في بناء المعابد للآلهة النوبية والمصرية. كان هؤلاء الملوك يدفنون في أضرحة داخل الإهرامات. قام ملوك مروى بتطوير خط جديد وبدأوا في كتابة اللغة المروية التي لم تكتشف أسرارها حتى الآن.

احتل **الأسكندر الأكبر** مصر في عام 332 قبل الميلاد وكانت فترة حكمه قصيرة وأصبحت مصر مملكة مرة أخرى تحت حكم البطالمة (306 – 30 قبل الميلاد). كان البطالمة متحدرين من أصول إغريقية وكان يشار إلي سكان جنوب مصر في السجلات الرسمية بـ "الأثيوبيين" (*Aethiopian*)، وهي تعني باللغة الإغريقية "ذوي الوجوه المحروقة". هذا الاسم الذي نعتهم به أول أعظم المؤرخين "هيرودوتس" (*Herodotus*) استمر طوال فترة حكم الرومان الذين سيطروا على مصر في عام 30 قبل الميلاد.

ازدهرت مروى خلال فترة حكم البطالمة. لم تكن العلاقات الأولية مع الرومان جيدة وطبقا لما أورده الرحالة استرابو (*Strabo*) - 63 قبل الميلاد 24م:

"قام الأثيوبيون في عام 24 قبل الميلاد بالهجوم على طيبة وقلعة الكتائب الثلاثة في أسوان وبهجوم مباغت استولوا على أسوان والفاننتين وفيلة وأسروا السكان وأسقطوا تمثال قيصر" 7.

في عام 23م قام الحاكم الروماني في مصر بترونيوس (*Petronius*):

"باجبارهم أولاً للهروب إلى بلشيس (*Pselchis*) وهي مدينة أثيوبية وأرسل سفراءه للمطالبة بارجاع ما أخذه الأثيوبيون وابداء أسباب مبادرتهم بالحرب؟".

لم يستجب الأثيوبيون له. ولذلك قام بترونيوس في عام 22م بمهاجمتهم في بلشيس. وبهزيمة الأثيوبيين هناك تقدم الحاكم الروماني باتجاه بريمنيس (*Premnis*) وقام بالسيطرة على المدينة وتقدم باتجاه عاصمة الأثيوبيين نبتة التي قام بتدميرها. بعد العديد من الأعمال العدوانية توصل الأثيوبيون والرومان إلى اتفاق سلام وازدهرت التجارة بينهم لعدة قرون.

قبل الرجوع مرة أخرى للنوبة أود أن أركز مرة أخرى إلى أنه اينما ذكرت بلاد النوبيين يجب أن نتذكر بأنه لا توجد هناك مصادر تاريخية منذ القدم كانت تستخدم هذا الاسم. وبالنسبة للنوبة فالأمر قصة مختلفة.

2 - النوبة يدخلون التاريخ

كان ايراستوثينز (*Erastothenes*) - 276 الى 194 قبل الميلاد - هو أول مصدر معروف ذكر قبيلة تسمى "النوبة" (*Nubae*). نحن لم نحصل على النص الأصلي لكن استرابو كان يتحدث عن معرفة ايراستوثينز عندما قال:

"[...] المناطق الواقعة في الجانب الأيسر من مجري نهر النيل، في "ليبيا"، يسكنها النوبة (*Nubae*) وهي قبيلة كبيرة يمتد تواجدها ابتداء من مروي إلى منحى النهر وهي لا تخضع لسلطان الأثيوبيين وهي مقسمة لعدة ممالك مستقلة" **8**.

بمسير ايراستوثينز بموازة مجرى النيل فهو يعني أن النوبة كانوا يعيشون بين مروي ودنقلا ... من المهم التوضيح بأنه كان يميز بشكل جلي بين الأثيوبيين والنوبة.

لقد ذكرت من قبل كتاب الجغرافيا (*Geographica*) لكلاوديوس بطليموس بأنه قام في حوالي عام 150 قبل الميلاد بتحديد مكان سكنى النوبة في جنوب مصر. وبخلاف ما يفترضه العديد من الناس فقد حدد مكان تواجدهم شرق نهر النيل. ويقول بطليموس أن النوبة يسكنون في أقصى غرب ميناء زيلع (*Avalitae*)، والفكرة هنا: أن بطليموس في هذه الفقرة يتحدث بشكل عام عن أناس يعيشون شرق النيل، وهو يحدد موقع زيلع في الساحل الأفريقي لخليج عدن. في حقيقة الأمر، ذكر بطليموس عدة قبائل تعيش بين بلاد النوبة (*Nubae*) ونهر النيل.

على أية حال، لم يعد ملوك مروي يهتمون كثيراً ببلاد النوبيين السفلي وكذلك لم يهتم الرومان بها: يروي بروكوبيوس (*Procopius*) المقيم في سيزاريا (*Caesarea*) (500- 565 م) بأن الإمبراطور دقلديانوس (*Diocletian*) (245- 312 م) قرر سحب القوات الرومانية من بلاد النوبيين السفلي. قام شعبين من شعوب الجنوب بازعاجه وهم: البلمييين (*Blemmyae*) (البجا) في الجنوب الشرقي والنوباتيين (*Nobatae*) في الجنوب الغربي في مكان يسمى بريمنيس (*Premnis*).

"[...] لذلك فقد أقنع بروكوبيوس هؤلاء البرابرة (النوباتيين) للانتقال من موقع سكناهم والاقامة على ضفاف نهر النيل [...] وبهذه الطريقة اعتقد بروكوبيوس بأن النوباتيين على الأقل لن يهاجموا البلاد الواقعة حول بلشيس بعد ذلك وبأنهم سيمتلكون الأراضي الممنوحة لهم باعتبارها أراضي خاصة بهم ومن المحتمل ان يهزموا البلمييين والقبائل البربرية الأخرى".

ونظراً لأن هذا التوجيه أسر النوباتيين فقد قاموا بتنفيذ الانتقال بشكل سريع حسب توجيه دقلديانوس وقاموا بالسيطرة على جميع المدن الرومانية والأراضي على جانبي نهر النيل الواقعة جنوب الفانتين.

من الواضح أن النوباتيين ليسوا برعايا لمملكة مروى. في ذلك الوقت وفي حوالي عام 300 م تراجع قوة مملكة مروى تدريجياً وضعفت نتيجة لتقدم بعض الشعوب من الشرق والغرب على حد سواء 9.

من الشرق أتت اكسوم وهذه مملكة قديمة فيما يعرف بأثيوبيا الحالية (الحبشة) وصلت قمة قوتها خلال حكم ملكها المسيحي عيزانا (Ezana) 330 – 356م. وفي نقش وجد في مروى أعلن عيزانا:

"أنا انتصرت ميدانياً على النوبة عندما ثار شعب النوبة (Noba) وهاجموا بعنف المانجورتو (Mangurto): الخاسا (Hasa) والباريا (Barya) وعندما قام النوبة السود بشن الحرب على النوبة الحمر. أنا حاربت على نهر تكازي (عطبرة) في مخاضة كيمالكي (Kemalke). فهربوا واتبعت الهاريين الفارين لمدة ثلاثة وعشرين يوماً وقمت بقتل البعض وأسر البعض الآخر وغنمت الغنائم وأحرقت مدنهم واستوليت على قمحهم ونحاسهم وحديدتهم ولحمهم المجفف والتساوير التي كانت في معابدهم وحرقته مخزونهم من القمح والقطن وقفز الأعداء الفارين في نهر سيدا (النيل الأزرق). ووصلت كوش (Kasu) وقمت بقتلهم وأسرت الأسرى في ملتقى نهري النيل الأزرق وعطبرة. وأرسلت قواتي إلى النيل الأزرق لمحاربة مدنهم: علوة (Alwa) ودارو (Daro) وقامت قواتي بقتلهم وأسر الأسرى وألقوهم في الماء ورجعت قواتي سالمة ومنتصرة. كما أرسلت قواتي باتجاه النيل الأزرق لمحاربة أهل المدن المشيدة بالقش والقصب الخاصة بالنوبة (Noba) والنجوس (Negues) ومحاربة أهل المدن المشيدة بالطوب واللبن الخاصة بالكوشيين التي استولى عليها النوبة وهي تابيتو (Tabito) وفيرتوتي (Fertoti) ووصلت قواتي إلى منطقة النوبة الحمر ورجعت سالمة ومنتصرة بعد أن قامت بأسر الأسرى وقتل الأعداء والاستيلاء على الغنائم" 10.

رغم التقدم الذي حققه علماء الآثار وعلماء اللسانيات في كشف المسألة الغامضة والمعقدة التي اكتشفت انهيار مملكة مروى، ما زال من المستحيل توضيح ما حدث بالفعل. من الظاهر أن النوبة السود هم من ثاروا، وهاجموا الشعوب المجاورة بما في ذلك النوبة الحمر وقاموا بالاستيلاء على بعض مدن مملكة كوش وبنفس القدر تم تدمير مدن مملكة كوش ولم ينج النوبة الحمر كذلك من هجمات جيوش اكسوم.

في خلال القرون القليلة التالية ظهرت ثلاثة ممالك مسيحية من حطام مملكة كوش. المملكة الأولى هي نيبته (Nobatia) في بلاد النوبيين السفلي، وهناك شك بأن نيبته تم تأسيسها بواسطة النوباتيين (Nobatae) الذين أشار اليهم بروكوبيوس. المملكة الثانية وهي المقرة (Makuria) الكائنة بين الشلال الثالث ومنطقة ما تقع بين الشلالين الخامس والسادس والمعروفة كذلك باسم عاصمتها دنقلا التي ربما تطورت من الجزء المتبقي من مملكة كوش الذي استولى عليه النوبة السود. والمملكة الثالثة هي مملكة علوة (Alodia) التي تقع جنوب المقرة وربما كانت تمثل الجزء المتبقي من مملكة كوش. تحول ملوك هذا الممالك إلى النصرانية بواسطة المبشرين من مختلف الطوائف المسيحية.

تم ضم مملكة نيبته إلى مملكة المقرة في حوالي القرن السابع الميلادي ومن المحتمل قبل فتح المسلمين لمصر الذي بدأ في عام 639م. تقدم المسلمون باتجاه الجنوب وتم إيقافهم بجيش ملك المقرة الذي ابرموا معه الاتفاقية المعروفة باتفاقية البقط التي حافظ عليها الطرفان لفترة طويلة. وقد انهارت مملكة المقرة في القرن الرابع عشر الميلادي ومن ثم اعقبتها مملكة علوة التي استولت عليها قوات سلطنة الفونج الوليدة والقادمة من الجنوب.

لقد تم تلخيص مسألة أصل النوبة بواسطة العالم دي. أيه. ويلسبي (D. A. Welsby)، واستنتج العالم ويلسبي بعد مراجعة جميع المصادر المتاحة والمراجع الأثرية:

"في المصادر التاريخية لدينا مجموعة من الأسماء التي قد تشير إلى مجموعة معينة من الناس. من بين هذه الأسماء النوبة والنوباديين والأنوباديين والنوبة الحمر (Nubae, Nobades, Nobates, Annoubades,)

(*Noba, Nouba and Red Noba*). إن دلالة هذه الأسماء غير واضحة وقد تكون أسماء مختلفة استخدمتها بشكل غير مضبوط مصادرنا: الأغريقية والرومانية والأكسومية والبيزنطية والعرب، لنفس المجموعة من الناس أو للإشارة إلى مجموعات فرعية أو للإشارة لمجموعات مختلفة من الناس. بكل تأكيد فإنه بالنظر للجانب الأثري من الصعب علينا تمييز المجموعات الحضارية المختلفة لمضاهاة كل اسم، وفي نفس الوقت لا توجد حضارة معينة تغطي كل المنطقة التي سكنها هؤلاء الناس. إنهم أولئك الناس أو الشعوب التي انصهرت في الممالك النوبية الثلاثة التي ظهرت في القرن السادس الميلادي.

لقد تم الافتراض بأن النوبيين تسللوا تدريجياً لمملكة كوش بموافقة أو بدون موافقة الحكام الكوشيين وأنه بضعف السلطة المركزية الكوشية تمكنوا من الاستيلاء على مراكز السلطة وإزاحة الطبقة الحاكمة الكوشية ومن المظاهر الأخرى لإنتشار شهرتهم هو الظهور المفاجئ لأعمال الخزف التقليدية (*traditional hand-made ceramics*) المصنوعة يدوياً بواسطةهم، من جانب، واندثار أعمال الفخار (*the finer Kushite pottery*) الكوشية المتميزة وكذلك انهيار الدولة الكوشية واندثار مؤسساتها الدينية والفنون والمعمار الكوشي والأدب في اللغة المروية من جانب آخر.

تضمن أحد النقوش الجدارية المكتوب باللغة الأغريقية في أحد جدران معبد ايزيس في فيلة في حوالي عام 537م النص التالي: "أنا، ثيودوسيوس (*Theodosios*)، النوبي" بما يقدم الدليل بأن الاسم المستخدم بواسطة النوبيين يصف انتماءهم العرقي **11**.

3 – النوبيون على ضفاف النيل والنوبة في جبال النوبة

طبعاً من المثير أن نرسم خطأً من النيل باتجاه الجنوب الشرقي! ألا يكون من المستغرب نسبة النوبة لأسلاف سبقوا قديم العرب؟ حسناً. جاء النوبة إلى ممالك النيل بعد زمن الفراعنة، لذلك ينبغي علينا أن ننسى كوش وحكم مصر! لكن هناك ثلاثة ممالك قديمة استمرت حكمها تقريباً من عام 4000 إلى 1600 قبل الميلاد. هل يكون ذلك سيئاً؟ ربما قد يكون!

حسناً، دعونا نبدأ: بالنسبة لمعظم قبائل النوبة لا توجد هناك علاقة مع النوبيين في ضفاف النيل. سواء بالمكتشفات الأثرية أو علاقة اللغة واللسانيات. قبائل النوبة الوحيدة التي يمكن ربطها بالنوبيين في ضفاف النيل هم قبائل النوبة الذين يتحدثون بلغات النوبيين. لأجل فهم المزيد من العلاقة بين المجموعتين علينا النظر في تصنيفات اللغات واللسانيات.

الفكرة الأساسية من وراء تصنيفات اللغات واللسانيات هو أن الناس الذين يتحدثون نفس اللغة يمكن أن يتفرقوا بعيداً وبعد ذلك تتطور اللغة بشكل مختلف في المجموعتين. هذا يؤدي بعد مرور مئات الأعوام إلى خلق لغتين مختلفتين. ينظر علماء اللغات واللسانيات إلى المفردات والقواعد والجوانب البنيوية لمختلف اللغات لأجل تصنيفها حسب إنتسابها وإرتباطها باللغات الأخرى. يستطيع علماء اللغات واللسانيات بمساعدة قوائم مفردات نمطية تحديد مستوى التقارب بين لغتين مرتبطتين أو متحدرتين من أصل واحد.

أقر الباحثون في القرن التاسع عشر بالفعل بالإرتباط والإنتساب اللغوي بين النوبيين في ضفاف النيل وبعض قبائل النوبة المقيمة في جبال النوبة وبعض المجموعات القبلية في دارفور **12**. فهم جميعاً يتحدثون لغات النوبيين المصنفة بالفرع السوداني الشرقي (*Eastern Sudanic*) لعائلة اللغة النيلية/أفريقيا جنوب الصحراء (*Nilo-Saharan*). لمدة طويلة كان السؤال المحير هو: هل جاء نوبة الجبال من النيل؟ أم هل جاء النوبيين الموجودين على ضفاف النيل من الغرب؟

بالرغم من فتح العرب لمصر وما استتبع ذلك من أسلمة، فقد احتفظ السكان على ضفاف النيل في بلاد النوبيين السفلي بلغتهم الأصلية المعروفة باللغة النوبية بالنسبة لعلماء اللغات واللسانيات. وبالارتباط الوثيق بلغة النوبيين هناك لغة الدناقلة التي يتحدثها السكان الموجودين على ضفاف النيل حول دنقلا في الوقت الحالي في السودان. من المحتمل أن تكون لغة النوبيين ولغة الدناقلة قد انفصلتا عن بعضهما البعض قبل حوالي 1100 عام - بزيادة أو نقصان قرن. لغة النوبيين ولغة الدناقلة وخاصة لغة النوبيين تعتبر من بقايا لغة النوبيين القدامى التي كان يتحدث بها السكان في الممالك المسيحية: نبتة، ودنقلا والمقرة.

كل من لغة النوبيين ولغة الدناقلة لها ارتباط بلغات بعض قبائل نوبة جبال النوبة وبعض قبائل دارفور. إن القبائل التي تتحدث لغة النوبيين في جبال النوبة تشمل: قبيلة الدلنج والكرو والغلفان ووالي والكارجو وهبيلا ودبيري وبعض قبائل الجبال الغربية مثل الطباق وأبو جنوك **13**. بالنظر للانتشار والتوزيع الجغرافي لهذه القبائل يمكنك أن تتصور أن بعضاً من هذه القبائل جاء من الشمال الشرقي والبعض الآخر دخل جبال النوبة من ناحية الكرو وبعضها انتقل ناحية الغرب حول جبال النيمق.

هذا ينسجم تماماً مع الأحداث التي جرت في القرن الثالث عشر الميلادي. بعد عدة قرون من الاستقرار تم طرد قبائل البدو العربية من جنوب مصر باتجاه الجنوب بواسطة المماليك **14** وكانت هذه القبائل البدوية العربية قد بدأت غزو مملكة المقرة. وفي الشرق كان البجا يهاجمون مصر وقرر المماليك أنه إذا لم تقم مملكة المقرة بمراقبة تحركات البجا فقد حان الوقت ليأخذوا الأمور بأنفسهم. عم المنطقة عدم الاستقرار ويمكننا أن نتصور أن الناس بدأوا يفرون من مملكة المقرة باتجاه الجنوب حتى وجدوا الملاذ في جبال النوبة. أليس هذا الافتراض معقولاً؟

حسناً - دعونا نزيد القصة الطويلة طويلاً: دليل علم اللغات واللسانيات يخالف ذلك. إلى جانب لغة النوبيين ولغة الدناقلة ولغة بعض نوبة الجبال الذين يتحدثون اللغة النوبية هناك مجموعتان أخريتان يتحدثان اللغة النوبية: البرقد والميدوب، الموجودين في أقصى الغرب والمنتشرين في دارفور (تم استئصال الميدوب في الوقت الراهن). بجمع البيانات عن مختلف اللغات النوبية، استنتج العالم جيه. اتش. جرينبيرج (J.H. Greenberg): "بالافتراض بأنه حدث افتراق بين لغة نوبة الجبال الذين يتحدثون اللغة النوبية ولغة النوبيين على ضفاف النيل قبل ما يزيد عن 2,500 عام من الآن - قد يكون افتراضاً غير صحيح" **15**.

بالطبع لا يمكننا تجاهل رابطة إنتساب جميلة مثل هذه الرابطة بكل سهولة. لقد لاحظ العالم سي. هيرتزوج (C. Herzog) أن بعض قبائل نوبة الجبال التي تتحدث اللغة النوبية لها مفردات مسيحية لأيام الأسبوع والبعض الآخر استعار كلمات كذلك: على كل، فإن النوبة في كردفان جاءوا من النيل" **16**. لكن العالم آر. ثلوال (R. Thelwall) لم ينبهر بهذا الافتراض.

"نحن على ثقة تامة بأن النوبيين (ولاحقاً الدناقلة) جاءوا إلى النيل من مركز انتشار في كردفان- دارفور كانوا قد أقاموا فيه وسيطروا عليه لما يقارب 4,000 عام. ونحن نعلم أنه كان يوجد هناك من يتحدث اللغة النوبية على ضفاف النيل على الأقل قبل خمسة قرون أو أكثر من ذلك. وحقيقة أن لغة بعض قبائل نوبة الجبال تتضمن مفردات لأيام الأسبوع ترجع لعصر الممالك النوبية المسيحية يشير إلى أن هذه اللغات كانت على اتصال على الأقل خلال حقبة الممالك النوبية المسيحية والتي من المحتمل أنها تغطي الفترة من عام 500م وحتى عام 1400م. لا يعني هذا بالضرورة أن قبائل نوبة الجبال التي تتحدث اللغة النوبية لم تقم بأكثر من الانتقال من منطقة كردفان الوسطي إلى جبال النوبة خلال حقبة الهيمنة السياسية النوبية من أسوان وحتى كوستي (على الأقل). لكن بالنظر إلى موقع قبائل جبال النوبة التي تتحدث اللغة النوبية (جبل الدائر، والدلنج وكارجو وغيرها) على طول الجانب الشمالي الشرقي للجبال يبدو أنهم كانوا

"وافدين" أقاموا وسط قبائل النوبة التي كانت متواجدة فعلاً: مجموعات النياما والتميان التي كانت متواجدة في الجبال قبلهم 17.

قد يبدو الأمر استنتاج صادم لبعض نوبة الجبال ولكن لا يوجد الآن عالم يجادل بأن النوبة في الجبال متحدرين من الممالك النوبية القديمة. دعونا الآن من مناقشة مسألة النوبيين فهناك المزيد الذي سنكتشفه.

ج – أصول نوبة الجبال

1 – " لقد عشنا دوماً هنا"

إذن إذا لم يأتي نوبة الجبال من ضفاف النيل فمن أين جاءوا؟ هل أقول فقط أنه ليس لدى فكرة من أين جاء النوبة؟ لن يكون ذلك بعيداً من الحقيقة عندما صاغها العالم الدكتور اس. اف. نادل بهذا الشكل:

"نحن نعلم القليل عن التاريخ القديم لقبائل جبال النوبة [...] يبدو دائماً كما لو أن أحداث التاريخ قد انقطعت تماماً بتجربة الدولة المهدية المتسلطة (1881-1898م) التي قطعت جميع الروابط مع التاريخ [...] الماضي الأكثر قدماً. في بعض القبائل فإن أحداث التحركات القديمة أو أماكن الإستيطان القديمة يتم تلخيصها بجملة واحدة: "لقد عشنا دوماً هنا". بعض القبائل الأخرى لديها الكثير من الوقائع التاريخية المحددة والأحداث الأكثر اشراقاً التي يمكن دعمها بالأدلة الموضوعية [...] لكنها لا تسلط الضوء على مسألة الموطن الأصلي لقبائل النوبة ولا تقدم أية معلومات فيما يتصل بزمان وكيفية صيرورة جبال النوبة موطناً لمجموعات سكانية كبيرة ومتنوعة 18.

بكل بساطة لا توجد هناك مصادر مكتوبة أو مكتشفات أثرية يمكن أن تسلط مزيداً من الضوء في كيفية أن التجوال والهجرة والترحال جمع قبائل النوبة المختلفة في موطنها الحالي. في الإستعراض التالي سنرى - بالنظر للمجموعات التي وصلت مؤخراً (خلال الألفية أو الألفيتين الأخيرتين) - أننا لدينا فكرة على الأقل فيما يتعلق من أين هاجروا ولكن لزمنا أبعد من ذلك: لا شيء.

2 – تصنيف لغات نوبة الجبال

الأبحاث الأثرية المنتظمة ربما تسلط مزيداً من الضوء على أصل قبائل النوبة ولكن يجب علينا في الوقت الراهن التركيز على مكتشفات علم اللغات واللسانيات. إن علم اللغات واللسانيات مجال معقد جداً وللأمانة هو غير جذاب ولكن على كل حال هو كل ما لدينا. لذلك نحن في المقام الأول سنبحث في تصنيف لغات نوبة الجبال المختلفة ومن ثم نتناول مسألة من جاء أولاً للجبال ومتي؟

يمكن تصنيف لغات نوبة الجبال إلى عائلتين أو ربما ثلاثة عائلات لغوية: عائلة اللغات النيلية/أفريقيا جنوب الصحراء (Nilo-Saharan) وعائلة اللغات الكردفانية (Kordofanian).

أ – عائلة اللغات الكردفانية: تشمل أربعة مجموعات تسكن في المناطق الجنوبية والشرقية من جبال النوبة: هييان، تلودي، رشاد وكتالا. تعتبر اللغات الكردفانية فرعاً من عائلة لغات النيجر/الكونغو والتي تشمل جميع لغات البانتو وبشكل عام معظم اللغات التي يتحدث بها سكان أفريقيا جنوب الصحراء. الشيء الوحيد هو أن اللغات الكردفانية لا تشبه أي من لغات النيجر/الكونغو، وهي تشمل مجموعة لغات مرتبطة بها فقط ومحصورة جغرافياً ومنعزلة كذلك. بعبارة أخرى، ليس لدينا دليل في كيفية وصول قبائل النوبة التي تتحدث اللغات الكردفانية إلى جبال النوبة.

ب – عائلة لغات كادوقلي: وهي لغة القبائل التي تسكن جنوب شرق والمنطقة القريبة من مدينة كادقلي. وقد تم تصنيفها سابقاً ضمن عائلة اللغات الكردفانية ولكن في الوقت الحالي تم اعتبارها جزء من عائلة اللغات النيلية/أفريقيا جنوب الصحراء. وهذه عائلة أخرى كبرى: لغة الدينكا ولغة النوير هي من عائلة

اللغات النيلية/ أفريقيا جنوب الصحراء وكذلك العديد من لغات قبائل تشاد والكونغو والعديد من اللغات المتحدث بها في نيجيريا.

ج – لغات بقية قبائل النوبة: تم تصنيفها كجزء من مجموعة رئيسية فرعية لعائلة اللغات النيلية/ أفريقيا جنوب الصحراء والمسماة اللغات السودانية الشرقية. وهذه اللغات تشمل لغة قبائل الداو والتيمن والنيمق. تتواجد قبائل النوبة التي تتحدث مجموعة اللغات السودانية الشرقية في المناطق الشمالية الغربية من جبال النوبة.

3 – إستيطان قبائل النوبة في الجبال بحسب التصنيف اللغوي:

كما رأينا سابقاً في مسألة المتحدثين باللغة النوبية أن التغيرات والتحويلات في اللغات ذات الارتباط والانتساب يمكن أن توضح لنا شيئاً فيما يتصل بزمان إنفصال واقتراق المتحدثين بتلك اللغات في الزمن القديم لتمضى كل مجموعة في طريقها. للأسف هذا ليس الأمر بالضبط كما أوضح لي العالم روبن ثلوال (Robin Thellwall):

"إعادة البناء اللغوي تعتمد بحد أدنى على البعد الزمني للإنفصال اللغوي ويتم تفسيرها بإطار زمني تخميني وموضوعي (تاريخ اللغات). هذا الإطار الزمني يكون في شكل نموذج (model) مؤقت ونسبي يتم اختياره بمضاهاة الدلائل الأخرى (الدلائل الأثرية والعادات والأعراف والتقاليد والموروثات الشفهية وفصائل الدم وتاريخ الطقس والمناخ والمصطلحات الزراعية ومصطلحات تربية الحيوان... الخ). هذا النموذج لم يطبق بالنسبة للغات قبائل النوبة التي تتحدث باللغة النوبية" 19.

على أية حال، فيما يتصل بـ"إستيطان قبائل النوبة بحسب التصنيف اللغوي" فقد قام العالمان آر. ثلوال (R. Thelwall) وتي. سي. شادبيرج (T. C. Schadeberg) 20 بتحليل جميع المعلومات المتاحة في لغات النوبة وتوصلاً للافتراضات التالية بخصوص التاريخ النسبي لإستيطان قبائل النوبة في جبال النوبة حسب التصنيف اللغوي:

1. القبائل التي تتحدث اللغات الكردفانية جاءوا قبل جميع القبائل الأخرى.
2. مجموعة النيمق والتيمن والقبائل التي تتحدث لغة كادوقلي جاءوا بعدهم.
3. القبائل المتحدثة بلغة الداو في الشات وليقوري جاءوا بعدهم.
4. قبائل النوبة التي تتحدث اللغة النوبية من المحتمل أنهم جاءوا في الفترة بين القرن الخامس والرابع عشر ميلادي.
5. القبائل المتحدثة بلغة الداو والمقيمين حول مدينة لقاوة الذين استوطنوا هناك مؤخراً نسبياً.

4 – عائلة اللغات الكردفانية:

هيان وكاتلا ورشاد وتلودي هي الأسماء الحالية لمختلف مجموعات اللغات الكردفانية التي تغطي النصف الشرقي من جبال النوبة وجزء كبير من وسط الجبال. في نطاق هذه المجموعة اللغوية ازداد الاختلاف بشكل كبير بينها مقارنة مع مجموعات لغات النوبة الأخرى. طبقاً لما أورده روبن ثلوال فإن: "هذه العائلة لديها تاريخ يمتد على الأقل 6,000 عام" 21. هذا يعني أنه ينبغي عليك أن ترجع 6,000 عام في الزمان لتجد قبائل النوبة المتحدثة باللغات الكردفانية الذين كانوا يتحدثون نفس اللغة. تم تصنيف عائلة اللغات الكردفانية مع عائلة لغات النيجر/الكونغو، وإن أقرب مجموعة سكان تتحدث لغات النيجر/الكونغو توجد في الحدود بين السودان وجنوب تشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى وفي جمهورية الكونغو. إن العلاقة بين عائلة اللغات الكردفانية وبقية عائلة لغات النيجر/الكونغو غير واضحة. فيما يلي التقسيمات الفرعية الحالية لعائلة اللغات الكردفانية:

أ – لغة هيبان ويتم التحدث بها في منطقة كبيرة مركزها الجغرافي مدينة هيبان. ويمكن تقسيمها إلى قسم شرقي يضم قبيلة كاو وقبيلة ورنى في الجنوب الشرقي وقسم مركزي يضم قبيلة الكواليب وقبيلة لارو وقبيلة هيبان وقبيلة أتورو وقبيلة الشواي وقبيلة اللوقول وقسم غربي يضم قبيلة المورو وقبيلة التيرا. بالنسبة لهذه القبائل لا تحتفظ الذاكرة الجمعية لها بمعلومات تاريخية كافية حول أصولها. ونحن نعرف أن قبيلة كاو التي اشتهرت من خلال صور المصورة ليني رايفنشتال (Leni Riefenstahl)، كانت تعيش في موقعها الحالي لما يقارب 200 عام على الأقل طبقاً لما أورده العالم جيه. سي. فاريز (J. C. Faris) الذي قال:

"توثق العادات والأعراف والتقاليد والمورثات الشفهية أنهم جاءوا لهذا المكان قبل هجرات العرب الأولى إلى هذه المنطقة (حوالي 1800، راجع كنيسون (Cunnison) 1966-3)، وتشير المخلفات السطحية للمساكن والأنساب والانفصال اللغوي من عائلة لغة الكواليب/المورو إلى مدة زمنية أكبر" **22**.

ولكن ماذا يعني هذا؟ قد يكون ذلك قبل 500 عام أو 2,000 عام ... نحن لا ندري.

لدى قبيلة تيرا معرفة بالمكان الذي جاءوا منه وموطنهم الأصلي الذي جاءوا منه يقع في جبال النوبة وأن الإطار الزمني فيما يتعلق بمجبتهم محدود:

"طبقاً لمورثاتهم: جاءت قبيلة تيرا [...] من مكان يسمى ريلة يقال بأنه يقع بين شيبون وكادقلي [...] وتركوه لأسباب مجهولة للاقامة في جبل تومبورو الكائن في سلسلة جبال مورو. هذا الإدعاء تم تأكيده بواسطة قبيلة المورو التي ما تزال تتذكر بأن قبيلة تيرا كانت تقيم في جبل تومبورو [...] عندما استوطن المورو لأول مرة [...] في تلك المنطقة. عندما تم طرد قبيلة تيرا بواسطة العرب من جبل تومبورو، هاجرت مجموعة قليلة من قبيلة تيرا نحو الشرق لتستوطن في منطقة تيرا الليمون وهاجرت بقية قبيلة تيرا لمنطقة تيرا الخدار وهذه الهجرة الأخيرة شملت ثلاث أجيال مضت [...] عندما وصل آباء وأجداد الجيل الحالي في منطقة تيرا وجدوا هناك بالفعل ثلاثة بطون من قبيلة تيرا كانت تعيش وتتحدث بلغة المهاجرين الجدد ويتمتعون بنفس الثقافة" **23**.

فيما يتعلق بقبيلة تيرا، من المستحسن ذكر القصة التي رواها العالم اس. سي. دون (S. C. Dunn)، الذي كان يقوم بأبحاث متصلة بممارسات غسل الذهب في جبال النوبة والذي كتب بأن الذهب يوجد بشكل أساسي في تيرا مندى مع وجود بعض الرواسب بكميات صغيرة في منطقة دونقور وأتورو. وقد ذهب العالم دون كذلك إلى منطقة شيبون التي كانت تُعتقد بشكل عام بأنها الموقع الذي يستخرج منه الذهب.

"[في جبل شاوي] وصف لي الشيخ ناصر وابنه وبعض كبار السن [...] بشكل تقريبي موقع حُفر الذهب في شيبون [...] وتم تزويدي بشيخ من النوبة كان يعرف ويعمل في منطقة شيبون ليكون مرشداً لي ومن ثم غادرت إلى منطقة شيبون. خلال ستة ساعات من التسلق في مجموعة جبال صغيرة [...] تم إرشادي لحفرة صغيرة في جانب الجبل يتم منها استخراج بعض الصلصال الأبيض الناعم وتم إرشادي إلى بركة مياه أمطار قديمة وكذلك تم إرشادي لمواقع قرى قديمة وبعض التلال المكونة من ركام الجبال. ومن ثم قلت: في اعتقادي لم يكن هناك أبداً ذهب أو غسل ذهب في منطقة شيبون، وقال رجل الشرطة الذي كان يرافقتي هذا بالضبط ما قاله الشوابنة له سراً أول من أمس. [لم يخبرني أحد بذلك بسبب] أنهم يعتقدون بأنني سوف أزع" **24**.

صارت شيبون السوق الرئيسي الذي يتم فيه بيع الذهب المستخرج من تيرا مندى.

لقبيلة المورو معرفة محدودة بتاريخهم:

كان الموطن القديم لقبيلة المورو هو جبل لبيو في سلسلة الجبال الغربية (لمنطقة المورو). وبازدياد تعدادها انقسمت القبيلة [...] إلى مجموعة ظلت في لبيو ومجموعة أخرى هاجرت إلى الطرف الشمالي من سلسلة الجبال [...] وهاجرت المجموعة الثالثة إلى أم دورين. في ذلك الوقت كانت المنطقة الشرقية من سلسلة الجبال خالية من السكان. قبل ثلاثة أو أربعة أجيال مضت بدأ المورو في الاستيطان هناك [...]. هذه الهجرة اقتضاها تزايد عدد افراد القبيلة والبحث عن أرض جديدة محمية بشكل افضل من المهاجمين العرب **25**.

لدى الكواليب تقاليد ومورثات تقول بأن:

"كواليب الشمال عاشوا في الأصل في منطقة كرتالة إلى جانب قبيلة تسمى نيمو. أدى ضغط التدفقات العربية إلى هجرة قبيلة نيمو إلى جبل الداير وبعض مجموعات قبيلة الكواليب إلى موطنها الحالي" **26**.

كتب سايمون هارجين (Simon Harragin) في كتابه (2003 Land Study) أن:

"هناك دليل تاريخي بأن قبيلة الكواليب كانت تقيم في السهول التي في أقصى غرب موطنهم الحالي (Sagar, 1922: 138) **27**. بالاشتراك مع النيمق قام الكواليب باستيطان المنطقة التي حول الدلنج قبل قبيلة الغلفان وشكلت قبيلة الكدرو حاجزاً بينهم [...] على أية حال، يستند الدليل التاريخي على رواية شفوية" **28**.

ب – لغة كاتلا: وتشمل كل من لغة قبيلة كاتلا وقبيلة تيمما ويتم التحدث بها في الجبال التي تقع جنوب غرب الدلنج وأنا لم أجد أية مصادر مرتبطة بتحديد أصلهم.

ج – لغة رشاد: يمكن تقسيمها إلى ثلاثة لغات: لغة ثقلي ويتحدث بها في جبال ثقلي وجبال رشاد ومدينة رشاد، و لغة تاقوي ويتحدث بها في تاقوي وموريب وتونمالي ولغة تنفال ويتحدث بها كذلك في جبال ثقلي.

نوبة مملكة ثقلي هم الوحيدون الذين لديهم تاريخ موثق يرجع إلى ما قبل القرن التاسع عشر. وهذا التاريخ لا يقدم أي لمحات أو إشارات فيما يتصل بأصولهم. والروايات التي تحكي عن تأسيس المملكة تتحدث عن وafd حكيم جاء إلى ثقلي وبدأ بتكوين سلالة – وهذه رواية شائعة في المورثات السودانية **29**. في الفصل الثاني سأرجع مجدداً لمملكة ثقلي.

د – لغة تلودي: وهي مجموعة لغات توجد بشكل أساسي في الجزء الجنوبي من الجبال. يمكن تقسيمها إلى لغة اللافوا في وسط سلسلة جبال الليري وبعض الجبال المجاورة ولغة منطقة تلودي الكبرى التي يمكن تقسيمها إلى أربعة مجموعات: لغة تلودي ويتم التحدث بها في مدينة تلودي وفي جبل تلودي، ولغة الليري ويتحدث بها في سلسلة جبال الليري الجنوبية، ولغة المساكين مع الدجيك والنجيل كلغتين منفصلتين ويتحدث بها في جبال المساكين وفي بُرام والريكة واللوكة وأخيراً لغة التوشو ويمكن تقسيمها إلى لغة الاشيرون و لغة الليمون و لغة التوشو.

أولى قبائل النوبة التي اشتهرت بسبب كتاب فريد قامت بتأليفة السيدة ليني رايفنشتال (Leni Riefenstahl) هي قبيلة المساكين القصار كما أسمتهم. أقامت السيدة رايفنشتال مع قبيلة المساكين في عدة مناسبات ولعدة أسابيع أو عدة شهور ولكن يبدو أنها لم تستفسر عن أصولهم. بالنسبة لها قبيلة المساكين: (Menschen wie von einem anderen Stern) "أناس جاءوا من كوكب آخر". وبالطبع وبشعور حقيقي "نحن لا نعرف من أين جاءت قبيلة المساكين مثلما إننا لانعرف كذلك من أين جاء النوبة من مجموعة تلودي".

5 – لغة النيمق والتيمن وكادوقلي:

هذه المجموعة المكونة من ثلاثة لغات هي مجموعة فريدة وهي تشبه مجموعة اللغات الكردفانية في حقيقة أنه يتم التحدث بها فقط في جبال النوبة. بالحكم على التنوع اللغوي الداخلي الكبير في نطاق كل مجموعة ربما تواجدت قبيلة النيمق والتيمن وكادوقلي في جبال النوبة لأكثر من 2000 عام **30**. ويبدو أنهم جاءوا إلى جبال النوبة في ظروف صعبة وبتركات مجموعات كبيرة لا يوجد بينها اتصال. وبحسب كلمات ثوال (TheHwal) وشادبيرج (Schadeberg):

"هذه المجموعات الثلاثة تتميز بتوزيع كثيف على نطاق جبال النوبة حيث تتواجد مجموعة لغة كادوقلي في الأطراف الجنوبية الغربية للجبال وتتواجد مجموعة لغات التيمن في الغرب بينما تتواجد مجموعة لغات النيمق في الشمال وهذا يشير إلى موطن خارجي وهجرة من هذه الاتجاهات. وبافتراض أن التنوع الداخلي المتساوي ينسجم مع استيطان في إطار زمني متسق يمكننا أن نقول أن معطيات هذا الإطار الزمني التي كانت سائدة في جبال النوبة أدت إلى تشتت السكان وتقليل التواصل بين المجموعات وحيث أنه من المحتمل أن هذه المعطيات انبثقت من خارج منطقة الاستيطان يمكننا التوقع بأن الهجرة إلى جبال النوبة والتنوع حدثا في زمان قريب **31**.

لا يوجد هناك شيء فريد يمكن أن نقوله فيما يتعلق بأصل كل مجموعة ولكن على أية حال دعونا نتناول كل مجموعة على حده:

أ – لغة النيمق: وتحدثت بها القبائل التي تعيش في جبال النيمق السبعة: سالارا وتندية وكرمتي وبتل وفاسو وكالارا وكاكارا. كما تتحدثت بها كذلك القبائل المتواجدة في جبال المنديل وسوبي. وتحدثت بها كذلك قبائل الأفيتي البعيدة نسبيا والتي تسكن في جبل الدائر. يسمى النيمق أنفسهم "شعب الأما" أو شعب الجبال السبعة (ama mede kolat). ولا يعرف إلا القليل عن أصلهم ولكن أورد العالم أس. أف. نادل بأن القبيلة:

"هاجرت من منطقة (في الغرب) فيما وراء "تيما وأبو جنوك" والتي تسمى كوجايا" (Kugya). وعند العالم آر. سي. استيفنس كوجا (Kwuja) أو كويجا (Kwija) والتي يمكن أن تكون كوجا (Kubja) **32**. وطبقاً لما أوردته استيفنس أن النيمق:

"يقولون أنهم استوطنوا أول مرة في الجبال الشرقية من سلسلة جبال النيمق في منطقة الأضية: منطقة نتيل وكرمتي وفاسو التي وجدوها غير مسكونة ومؤخراً هاجروا باتجاه الغرب إلى تندية وسالارا. وفي سالارا ادعوا بأنهم وجدوا قبيلة [كونيت] (إحدى قبائل الجبال التي تتحدث اللغة النوبية) وطردهم باتجاه الشمال بعد صراع عنيف" **33**.

الطريقة التي تحيط بها قبائل النوبة التي تتحدث اللغة النوبية بقبيلة النيمق تجعل هذا السيناريو غير معقول. ويقول العالم استيفنس أنه من المحتمل أن قبيلة النيمق استوطنت منطقة كبيرة، تمتد حتى الدلنج إلى حين وصول قبائل النوبة التي تتحدث اللغة النوبية.

ب – لغة التيمن: وتحدثت بها القبائل التي تعيش في جبال التيمن (شمال جلود) وقبيلة كيجا وقبيلة تيسي اللتان تسكنان في كيجا جيرو (غرب دبيري) وتيسي أم طناب (شمال شرق كادوقلي) على التوالي. ليس هناك ما يمكن قوله عن قبيلة التيمن سوى أنه:

"يدعى سكان كيجا جيرو أنهم هاجروا من جبال التيمن في "زمن سحيق"، وإن هذه الإدعاء يدعمه موروث قبيلة التيمن الذي يقول أن كل من قبيلة كيجا جيرو وتيسي أم طناب هاجروا في زمن المجاعة" **34**.

ج – لغة كادوقلي: كاسم عام هو لا يشمل مجموعة كبيرة من اللغات ذات العلاقة والمصنفة ضمن هذه المجموعة. في العادة تذكر كادوقلي مع كاتشا وميري، لأنها مرتبطة بشكل وثيق حيث يمكن اعتبارها لهجات وليس لغات مستقلة. وهناك العديد من لغات قبائل النوبة تم تصنيفها مع لغة كادوقلي/ميري/كاتشا وهي لغات **توليشي** و**كانجا** و**كيجيا** و**كرونقو** و**تومت**. إنها لغات مرتبطة ببعضها البعض بشكل واضح وبلغة كادوقلي/ميري/كاتشا ولم يتم تحديد إنتسابها الفعلي ويصفها آر. سي. استيفنس بلغة مجموعة كادوقلي/الكونغو:

[**"المنطقة التي تغطيها هذه المجموعة كبيرة جداً: وهي تمتد على طول الجنوب الغربي، وحدودها تقع في توليشي في الغرب و كوروندي في الجنوب الشرقي**]. وأهم سلاسلها الجبلية هي جبال ميري وجبال كادوقلي وجبال كرونقو وقد تم تسمية المجموعة على اثنين منها **35**. في الأبحاث والمطبوعات الحديثة تمت الإشارة لهذه المجموعة بمجموعة لغات كادو، وسأستخدم هذا المصطلح لسهولة المرجع. وتشمل اللغات السائدة في المنطقة من الشمال الغربي وحتى الجنوب الشرقي اللغات التالية:

لغة توليشي: ويتحدث بها حول جبل توليشي ولاقوة وكمانق ودار الكبيرة.

لغة كيجيا: ويتحدث بها في جبل دميك (شمال ميري): امبونق ولوبونق وتومورو.

لغة ميري: ويتحدث بها في ميري بار وميري جوه ولوبا وغيرها، وجميعها تقع غرب كادوقلي.

لغة كادوقلي: ويتحدث بها في مدينة كادوقلي والقرى المحيطة بها.

لغة كاتشا: ويتحدث بها في قرى كاتشا وتونا وكافينا ودكيا (دونقا) وبلانيا وفاروك. وهي على مسافة قريبة من جنوب كادوقلي وجنوب شرق جبال ميري.

لغة كانجا: ويتحدث بها في أبو سنون و جيرورو/كورسي وكانجا وكوفاليم وكرونقو عبدالله.

لغة كرونقو: ويتحدث بها في المناطق الجنوبية في تبايا وتروجي ودار وانقولو وفي داماقوتو وديمادراقو وديمودونقو وفي فاما وتيس وكوا.

لغة تومت: ويتحدث بها في جبل الليري: في كاروندي وتالاسا وتومت.

لا يوجد هناك الكثير الذي يمكن قوله عن أصول القبائل التي تتحدث إحدى لغات كادو: لا أحد يعرف من أين جاءوا. الارتباط والانتساب اللغوي والثقافي بين مختلف القبائل واضح بشكل تام. يقول العالم جي. باومان (G. Baumann)، الذي قضى 18 شهراً بين قبيلة ميري وهو يجري أبحاثه:

" تشكل قبيلة ميري وحدة ثقافية ولغوية كبرى مثل مجموعة كادوقلي/كرونجو. [...] أكدت لي رحلاتي الخاصة في منطقة كادوقلي/كرونقو انطباع متكرر عن موروث ثقافي عام لايشمل فقط الارتباط اللغوي بل يشمل المؤسسات والعادات والمفاهيم والأحاسيس المشتركة. صحيح أن أي مجتمع من مجتمعات مجموعة كادوقلي/كرونقو مضى في طريقه بشكل خاص في عمليات تغيير خلال السنوات الأخيرة، لكن التنوع الثقافي الأخير لم يستطع حتى الآن حجب أو إلغاء الموروث الثقافي للمجموعات المتجاورة" **36**.

عادة ما يتم الاعتراف بالعلاقات بين القبائل نفسها كما توجد هناك أساطير عن الأصل لكن فيما يتصل فقط بالتحركات على نطاق جبال النوبة. أورد العالم الدكتور اس. أف. نادل على سبيل المثال أن قبيلة الكورنقو:

"تدعي أن لها ارتباط ثقافي ولغوي مع [...] قبيلة تومت في جبل تلودي وقبيلة ديري في جبل الليري وثلاثة مجموعات صغيرة في الغرب: تيش وفاما وشات صافية [...] لقد أكدت من صحة ذلك في تلودي وتيش وفاما. لكن قبيلة الشات، بحسب ما إكتشفت، لديهم لغة مختلفة كما أنهم جميعاً من مجموعة عرقية مختلفة. وتزعم قبيلة الكورنقو أن هذا الإرث الثقافي يرجع للأصل المشترك للمجموعات المشتتة الآن بشكل كبير. وطبقاً لموروث قبيلة الكورنقو فإن جبل تابولي وهو سلسلة جبلية تقع شرق كورونقو وغير المسكون حالياً كان الموطن القديم لهذه المجموعات المختلفة **37**.

تدعي قبيلة توليشي، باعتقاد راسخ، بأنهم عاشوا على "الدوام" في جبالهم، غير متأثرين بالهجرات [...]. وإن قبيلة توليشي تدرك تماماً إرتباطها بقبيلة كامدانق وقبيلة تروجي ولكنه ليس لها موروث عن أصلها أو الهجرات السابقة التي قد تفسر العلاقة القبلية. لكنه لديهم موروث فيما يتصل بقبيلة ميري (وكذلك جبل داميك وكيجا) حيث يزعمون بأنه لديهم لغة عامة أو متشابهة بشكل كبير وبطون قبلية مشتركة. [لقد عاشوا معاً جميعاً في وقت من الأوقات ولكنهم افرقوا بعد نزاع]. ويمكن أن نضيف أن قبيلة ميري تقاسم القبيلتين أعراف وموروث يوضح العلاقة القديمة معهما **38**.

تم تأكيد ذلك بواسطة العالم جي. باومان الذي أورد:

"بأنه دائماً يتم استدعاء العلاقة الأسطورية مع توليشي [...]": "سابقاً عاشت قبيلة توليشي هنا على قمة جبل يسمى أقيول. [لقد قاموا بعمل شئ خاطئ]. لذلك فهم هاجروا لموطنهم الحالي" **39**.

وهذا كل ما يتصل بلغات النوبة التي يتحدث بها النيمق والتيمن وكادقلي.

6 – قبائل نوبة الجبال التي تتحدث اللغة النوبية:

كما تم مناقشة هذا الأمر مطولاً فيما سبق، فإنه من المحتمل أن قبائل نوبة الجبال التي تتحدث اللغة النوبية جاءت إلى جبال النوبة قبل عام 1400م. وتم تصنيف مختلف لغات هذه القبائل على النحو التالي:

لغة الغلفان والكدرو: يتم تصنيف هاتين اللغتين كمجموعة واحدة. ويتم التحدث بلغة الغلفان في منطقة غلفان الكرّجل وغلفان المورونج، ويتم التحدث بلغة الكدرو في مناطق جبال الكدرو والكرورو والكافير وكرتالا والدباتنة وكادقلي.

لغة قبيلة الدلنج: يتحدث بها في مدينة الدلنج والقرى المحيطة بها.

لغة قبيلة جبل الدائر: يتحدث بها في الأجزاء الغربية والجنوبية من جبل الدائر.

لغة قبيلة الكارجو: يتحدث بها في جبل الكارجو ودلمان وكذلك في منطقة أبو جنوك والطباق.

لغة قبيلة والي: يتحدث بها في منطقة جبال والي.

لم يذكر العالمان ثلوال وشادنبيرج الكثير فيما يتعلق بالضبط بكيفية وزمان هجرة قبائل نوبة الجبال التي تتحدث اللغة النوبية إلى الجنوب:

سواء حدثت الهجرة بسبب ضغوط تدفقات القبائل البدوية العربية، كما أورد آركل **40**، أو حدث في تاريخ مبكر فالأمر غير واضح. التشابه النسبي للهجات قبائل جبال النوبة التي تتحدث اللغة النوبية لا ينبئ بوجود مجتمعات منعزلة تتحدث اللغة النوبية في هذه الجبال لعدة ألاف السنين) **41**.

كما أورد آر. سي. استيفنس من المحتمل أن الأمر كان تدريجياً:

"جاءت لغة النوبيين إلى شمال جبال النوبة بالتحركات القبلية المتسارعة بتدفقات القبائل العربية خلال القرون القليلة الماضية. في زمان الرحالة والمستكشف الألماني فيلهم روبل (Wilhelm Peter Eduard Simon Rüppell) - عشرينيات القرن الثامن عشر - كان يتم التحدث بهذه اللغة في السهول الواقعة جنوب الأبيض" 42.

أورد العالم الدكتور اس. اف. نادل أكثر الشروحات تفصيلاً لكيفية مجئ لغة النوبيين لجبال النوبة:

"لقد احتفظت قبيلة الوركا أو قبيلة الدلنج بموروث واضح جداً فيما يتصل بأصلهم وماضيهم القديم. هذا الموروث يوضح أن القبيلة كانت تعيش في منطقة عبد الباقي في منطقة الغديات تحت حكم سلاطين تلك المملكة. يقال أن أصل الغديات كان من الفونج وهم من ناحية عرقية لهم علاقة بالوركا. أجبرت هجمات بدو العرب اللاحقة الأخيرين للهجرة. في أول الأمر هاجروا إلى منطقة بوتى (الآن تسمى السنجاكية) ومن ثم إلى شرمة أو جبل التكوما (على بعد عشرة أميال شرق الدلنج). يقال أن الغديات في موطنهم القديم أصبحوا مثل العرب بينما أصبح الوركا "نوبة". على أية حال، ظلت الرابطة القديمة باقية في الجانب السياسي، وما زالت قبيلة الدلنج تابعة لسلاطين منطقة عبد الباقي وما زالت تقر بسيادتهم الرمزية. تورد شجرة نسب زعماء قبيلة الدلنج أن عشرة من زعماءهم أقاموا بالفعل في الدلنج. لم تذكر علاقتهم ولكننا يمكن أن نفترض بأنها استمرت لفترة لا تقل أو من المحتمل أن تزيد عن 100 عام.

تعرف قبيلة الدلنج روابطها الثقافية واللغوية مع قبيلة الكدرو وقبيلة الغلفان [...] إن العرف والموروث الأكثر قبولاً يقول: أن قبيلة الكدرو كان تعيش مع قبيلة الوركا في منطقة الغديات ولكنهم افترقوا لاحقاً وأن مجموعة قبائل الغلفان تنحدر من الفونج ولكن موطنهم الأصلي غير معروف، وأن مجموعة صغيرة ومعزولة لها ثقافة ولغة تشبه ثقافة ولغة قبيلة الدلنج تعيش الآن في جبل الطباق في غرب كردفان شاركت قبيلة الوركا في موطنهم القديم بجبل التكونا ولكنهم بعد ذلك هاجروا إلى موطنهم الحالي 43.

7 - القبائل التي تتحدث لغة الداو:

جاءت القبائل التي تتحدث لغة الداو إلى جبال النوبة من الغرب من مملكة الداو التي لا نعرف عنها إلا القليل. استقرت مملكة الداو ربما قبل عام 1200م في جبل مرة وهي سلسلة جبلية تروبيها الأمطار في نطاق منطقة جافة. سيطر الداو على المنطقة التي تقع بين جبل مرة والأطراف الغربية لجبال النوبة. لقد تم اجلاء قبيلة الداو بواسطة التنجور في نهاية القرن الرابع عشر. تم تشتيت قبيلة الداو بواسطة قبيلة التنجور ونجدهم الآن في جيوب (مناطق) معزولة على نطاق المنطقة الممتدة من تشاد وحتى السودان في أقاليم كردفان ودارفور ووداي.

لا تبدو الأمور من الناحية اللغوية معقدة: وبتابع تصنيف العالم آر. سي. استيفنس 44 نستطيع التمييز بين الداو الغربيين والداو الشرقيين.

تعيش جميع قبائل الداو التي تتحدث لغة الداو الشرقيين في جبال النوبة. وهما قبيلة الشات في جبال الشات، التي تقع جنوب غرب كادوقلي (شات دمام وشات صافية وشات تبليدية)، واللقوري والصبوري في الجبال التي تقع شمال شرق مدينة كادوقلي.

قبائل الداو التي تتحدث لغة الداو الغربيين أكثر تشتتاً. ففي تشاد نجد قبيلة المونقو في دار الداو وقبيلة سيلا في دار سيلا. وفي السودان نجد قبيلة نيالا حول مدينة نيالا في إقليم دارفور وقبيلة بيغو

(اندثرت) في جنوب دارفور وقبيلة نبالجولجول في دولة جنوب السودان عند نهر سوبو. ومن ضمن قبائل الداو التي تنتمي للداو الغربيين قبائل الداو التي تعيش قرب لقاوة وهذا يرجعنا لجبال النوبة.

بالنظر للمعطيات اللغوية فإن العالم روبن ثلوال مقتنع بأن لغات الداو الشرقيين انفصلت عن اللغات الأخرى من زمن طويل ربما قبل أكثر من 2,000. لقد كانت قبائل الشات والليقوري متواجدة في جبال النوبة قبل فترة زمنية أطول من تواجدهم في لقاوة وبسبب الاختلاف اللغوي الكبير بين الشات والليقوري من المحتمل أن هجرتهم لجبال النوبة سبقت وصول ليس فقط قبائل الداو التي تعيش في لقاوة بل كذلك وصول قبائل النوبة التي تتحدث اللغة النوبية في هذه المنطقة 45.

لذلك بالنظر للجانب اللغوي تبدو الأمور واضحة. أما بالنظر للجانب التاريخي فإن الأمور تبدو أكثر ضبابية. لا يوجد شك أنه قبل 250 سنة مضت كان يوجد هناك قبيلتين اثنتين: قبيلة الداو وقبيلة الشات، تعيشان في منطقة المجلد غرب جبال النوبة. يقول المستر كيه. دي. دي. هندرسون (K. D. D. Henderson)، وهو أحد أوائل مديري المديرية (الولايات) البريطانيين المعينيين لمديرية غرب كردفان: "أن قبيلة الداو وقبيلة الشات وصلتا هناك قادمتين من دارفور حوالي عام 1710م 46. وطبقاً لما أورده أيان كنسون (Ian Cunnison)، فقد تم إجلاء وطرد القبيلتين بعيداً بواسطة قبيلة المسيرية:

"عندما وصل (المسيرية الحمر) موطنهم الحالي وجدوا قبيلتين اثنتين وثنتين: قبيلة الشات وقبيلة الداو في المجلد (دينفا). ولذلك، قام المسيرية الحمر بإجلاء وطرد القبيلتين من المنطقة. هربت قبيلة الشات بعيداً للجنوب حيث التقت بقبيلة دينكا نوك وتم طردهم بعيداً للغرب [...]. وهربت قبيلة الداو (للشرق) واستوطنوا بين قبائل النوبة 47.

يقول هندرسون إن المسيرية البقارة جاءوا إلى المجلد في غضون العقد الممتد من عام 1765 إلى 1775م 48، لذلك نحن لدينا مؤشر جيد جداً فيما يتصل بمجيئ قبيلة الداو إلى لقاوة. لكن ماذا عن قبيلة الشات؟ لقد ذهبوا إلى الجنوب حتى التقوا بدينكا نوك وتم طردهم باتجاه الغرب!!!

رجاء، لا تجعل الاسم يشوش عليك، ليس هؤلاء بقبيلة الشات الموجودة في جبال النوبة. توضح موسوعة "الأنثروبولوجيا الثقافية: لغات العالم":

"تطلق قبيلة الشات على نفسها اسم "كانيق". الشات اسم أطلقته القبائل الناطقة باللغة العربية على سكان الجبال، وهو يعني المشتتين ويطلق على مختلف الجماعات. هناك لهجتين متميزتين من لغة الشات وهي لهجة شات ثوري (Thuri) في مجموعة اللاو (Lwo) ولهجة شات موندو (Mundu) 49. تعيش المجموعتان الأخيرتان في دولة جنوب السودان وهذا يظهر بعض المنطق لكنه لا يفسر ما أورده واتكيس لويد (Watkiss Lloyd) أول مدير لمديرية (ولاية) كردفان:

"يقول السكان المحليين من قبيلة شات الصافية وشات الدمان بأنهم كانوا في السابق يحتلون جميع دار المسيرية الحمر وقد تم تأكيد ذلك بواسطة عرب المسيرية الحمر الذين يقولون أنه ما زالت هناك مستوطنات صغيرة لنفس القبيلة في مكان يسمى شات وهو على بعد أميال قليلة من حدودنا" 50.

يجب علينا أن نفترض بأن مدير المديرية تلقى معلوماته من الجهة (السكان المحليين) الخطأ. وماذا نفعل برواية العالم آر. سي. استيفنسن فيما يتصل بلهجة الداو والشات بحسب ما استقاها من معلومات مدير المديرية كيه. دي. دي. هندرسون؟ ففي روايته أن الداو والشات هاجروا إلى الشرق معاً ووصلوا إلى المجلد حوالي عام 1710م وتحركوا ببطء وتمهل باتجاه المنطقة التي تقع غرب لقاوة في العقود التالية. من هناك وصل البعض منهم المسير إلى الليقوري والصبوري بينما الآخرون (الشات) استوطنوا جنوب

كادوقلي **51**. استيفسن عالم لغويات مرموق ومتميز ولكنه على أية حال لم يدرك أن الاختلاف بين الداجو والشات كبير جداً ليجنوا الى جبال النوبة معاً.

وهذا يوصلني الآن إلى نهاية البحث عن أصول النوبة. يمكن أن يقال إن النتائج عظيمة، أليس كذلك؟ (لكن الصراع بطولي). في الفصل القادم سأركز على سرد مزيد من الأحداث المهمة التي جرت في الفترة قبل المهدية.

الحواشي والمراجع

- 1.** قام المؤلف بإجراء المقابلة مع الراحل الأستاذ يوسف كوة في لندن – 13/12 فبراير 2001م
- 2.** A.C. Stevenson: The Nuba People of Kordofan Province, 1984, pp. 3.
- 3.** A.H. Keane already dismissed it in 1885: Ethnology of Egyptian Sudan; The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, Vol. 14 (1885), pp. 101.
- 4.** A. J. Arkell: A History of the Sudan to A.D. 1821, 1955.
- 5.** S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 2.
- 6.** Claudius Ptolemy: Geography IV, ch.7. The strangest thing is that he locates the *Nubae* east of the Nile while the
- 7.** European maps invariably put Nubia to the west of the river.
- 8.** Strabo: Geographica, book XVII;54
- 9.** Strabo: Geographica, book XVII;2
- 10.** Procopius: History of the Wars, c. 550 CE: Book I;19
- 11.** Abbreviated text of the Ezana inscription
- 12.** D. A. Welsby: The Medieval Kingdoms of Nubia, 2002.
A. H. Keane for example: opus cit.
- 13.** R. C. Stevenson: The Nuba People of Kordofan Province, 1984
- 14.** الدولة المملوكية أو السلطنة المملوكية أو دولة المماليك هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في مصر خلال أواخر العصر العباسي الثالث وامتدت حدودها لاحقاً لتشمل الشام والحجاز ودام ملكها منذ سقوط الدولة الأيوبية عام 648 هـ الموافق لعام 1250م إلى حين هزيمة المماليك بواسطة السلطان سليم في معركة الريدانية عام 923 الموافق 1517م.
- 15.** J. H. Greenberg: The Languages of Africa, 1963; Int. journal of American linguistics, 29, 1, part 2.
- 16.** R. Herzog: Die Nubier, 1957.
- 17.** R. Thelwall: Nuba Languages and History: Who is related to who in and outside of the Nuba Mountains and did they come from anywhere else?; Nuba Vision, Volume 1, Issue 3, February 2002.
- 18.** S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 4-5.
- 19.** R. Thelwall, private correspondence.

20. R. Thelwall and T. C. Schadeberg: The Linguistic Settlement of the Nuba Mountains; Sprache und Geschichte in Afrika 5 (1983) 219-231
21. R. Thelwall: Nuba Languages and History [...]; Nuba Vision, Volume 1, Issue 3, February 2002.
22. J. C. Faris: Nuba Personal Art, 1972, pp. 14.
23. S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 176-177.
24. S. C. Dunn: Native Gold Washings in the Nuba Mountains Province; Sudan Notes and Records, Vol IV. No. 3, October 1921, pp. 143-144.
25. S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 178
26. Idem, pp. 358.
27. J. W. Sagar: Notes on the History, Religion and Customs of the Nuba; Sudan Notes and records 5 (1922), pp. 137 - 156.
28. S. Harragin: Nuba Mountains Land and Natural Resources Study; Part I – Land Study, 2003.
29. J. J. Ewald: Experience and Speculation: History and Founding Stories in the Kingdom of Tagali, 1780-1935; the International Journal of African Historical Studies, Vol 18, No. 2 (1985), pp.265-287.
30. R. Thelwall: Nuba Languages and History [...]; Nuba Vision, Volume 1, Issue 3, February 2002.
31. R. Thelwall and T. C. Schadeberg: The Linguistic Settlement of the Nuba Mountains; Sprache und Geschichte in Afrika 5 (1983) 219-231
32. S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 362.
33. R. C. Stevenson: The Nuba People of Kordofan Province, 1984, pp. 85.
34. Idem, pp. 122.
35. R. C. Stevenson: A Survey of the Phonetics and Grammatical Structure of the Nuba Mountains Languages, with
36. Particular Reference to Otoro, Katcha and Nyimang; Africa und Übersee 40 (1956), pp. 103.
37. G. Baumann: National Integration and Local Integrity, the Miri of the Nuba Mountains in the Sudan, 1987, pp. 22-24.
38. S.F. Nadel: The Nuba, an anthropological study of the hill tribes in Kordofan, 1947, pp. 368.
39. Idem, pp. 319.
40. G. Baumann: opus cit., pp. 140
41. A. J. Arkell: A History of the Sudan from the Earliest Times to 1821, 1955.
42. R. Thelwall and T. C. Schadeberg: The Linguistic Settlement of the Nuba Mountains; Sprache und Geschichte in Afrika 5 (1983), pp. 219-231
43. R. C. Stevenson: Linguistic Research in the Nuba Mountains; Sudan Notes and Records 45 (1963), pp. 79-102.
44. S. F. Nadel: the Nuba, an anthropological study of the Hill Tribes in Kordofan, 1947.

- 45.** R. C. Stevenson: A survey of the phonetics and grammatical structure of the Nuba Mountains languages, with particular reference to Otoro, Katcha and Nyimang; *Afrika und Übersee* 40, 1956-7
- 46.** R. Thelwall: Nuba Languages and History [...]; Nuba Vision, Volume 1, Issue 3, February 2002.
- 47.** K. D. D. Henderson: The Migration of the Messiria into South West Kordofan; Sudan Notes & Records 22/1, 1939
- 48.** I. Cunnison: The Baggara Arabs: Power and Lineage in the Sudanese Nomadic Tribe, 1966
Idem, pp. 54
- 49.** Gordon, Raymond G., Jr. (ed.), 2005. Ethnologue: Languages of the World, Fifteenth edition. Dallas, Tex.: SIL International. Online version: <http://www.ethnologue.com/>.
- 50.** Watkiss Lloyd: Notes on Kordofan Province; The Geographical Journal, Vol. 35, No. 3 (Mar. 1910) pp. 249 - 267
- 51.** R. C. Stevenson: The Nuba People of Kordofan Province, 1984, pp. 35-37

التاريخ القديم والوسيط والحديث لنوبة الجبال: (قبائل نوبة جبال النوبة بولاية جنوب كردفان)

الجزء الثاني - النوبة في عهد سلطنات الفونج والفور والتركية السابقة والدولة المهديّة والحكم الثنائي

4 - غزو كردفان

1- سنار

في معركة دنقلا التي جرت عام 652 م قامت جيوش مملكة المقرة بإيقاف زحف الغزاة العرب وتم إبرام اتفاقية البقظ بين العرب وملوك المقرة مما سمح بازدهار التجارة بين دولة النوبة والعالم العربي لمدة سبعمائة عام. تمددت طرق القوافل عبر البلاد من الجنوب للشمال ومن الشرق للغرب. استقطبت التجارة التجار العرب الذين أقاموا وسط السكان المحليين على ضفاف النيل كما أقام العرب وسط سكان جبال البحر الأحمر حيث تم العثور على الذهب. وتدرجياً وبمرور ما يقارب ألف عام تنامي نفوذ المستوطنين العرب. جعل التزاوج مع السكان المحليين والثروة المكتسبة من التجارة بالإضافة للقوة العسكرية العرب في وضع متميز.

إزدادت وتيرة عملية التعريب والأسلمة البطيئة بقيام مملكة الفونج في سنار 1. يتحدر الفونج من أصول أفريقية وهم وصلوا للمنطقة على عهد مملكة علوة القديمة في عام 1504م. خلال عدة عقود تمكن سلاطين سنار من حكم جزء كبير من السودان الشمالي. إعتنق سلاطين سنار الإسلام في عام 1523م وقاموا بدعوة العلماء والدعاة المسلمين لنشر العقيدة الإسلامية. صارت الثقافة العربية والتنظيم الإجتماعي القائم على العروبة والإسلام أكثر هيمنة. اعتمدت سلطنة سنار على التجارة المزدهرة عبر طرق القوافل التجارية وعلى العبيد وعلى الذهب الموجود في أرجاء السلطنة. إمتد نفوذ سلطنة سنار حتى وصل إلى جنوب كردفان وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أدت الهجرات من ضفاف النيل في الشمال إلى الجنوب إلى انتقال النفوذ العربي إلى سلطنة سنار. إدعت القبائل التي هاجرت أولاً خلال تلك الحقبة بأنهم عرب لكن شجرة الأنساب التي عادة ما يقدمونها تبدو مختلفة وغير حقيقية 2.

لفترة غير محددة وربما ببداية النصف الأخير من القرن السادس عشر الميلادي كان هناك جزء من كردفان يسمى بلاد الغدييات كانت ولاية تابعة لسلطنة سنار. كانت الأسرة الحاكمة في الغدييات تنحدر من الفونج وتقيم في ود البغا. وطبقاً لما أورده ماكمايكل فإن حكمهم استمر لفترة قصيرة امتدت من عام 1755م وحتى 1768م ولكنهم ظلوا في منطقتهم بعد إنهيار سلطنة سنار 3. ربما تتذكرون أن الوركاء أو سكان الدلنج هاجروا من منطقة الغدييات. وعندما سجل العالم نادل العلاقات التاريخية بين الوركاء والغدييات (حوالي 1939م) كان كل زعيم جديد في الدلنج يدين بالولاء لسلطان الغدييات. على الأقل هناك عشرة أجيال من زعماء منطقة الدلنج قاموا بزيارة ود البغا لاستلام صلاحياتهم من السلطان 4. من الملاحظ أن هذه العلاقة ظلت حتى القرن العشرين. تم الإستيلاء على كردفان من سلطنة سنار بواسطة سلاطين دارفور وتم غزو كردفان بواسطة العرب البدو وتم استيعاب سلطنة سنار في الإمبراطورية العثمانية ومن ثم قام الإمام المهدي والخليفة عبد الله التعايشي بالسيطرة على كردفان قبل أن تصير في خاتمة المطاف جزءاً من السودان الانجليزي المصري. في كتابه "مقدمة لتاريخ النوبة قبل الإستعمار" ذكر جيه. سبولدنق بأن نفس العلاقات كانت توجد بين سلطان الغدييات وبعض القبائل الأخرى ذات العلاقة بالوركاء: الكدرو والغلفان والطباق 5. لم يذكر العالم نادل ذلك ولكن ليس من المستبعد أن الكثير من قبائل النوبة كانوا رعايا لسلطنة سنار من خلال سلطان الغدييات.

2 - الكيرا

لمدة سبعة آلاف سنة كان جبل مرة الكائن في جنوب دارفور مركزاً لمملكة أو سلطنة سيطر عليها أولاً الداجو (900-1400؟) ومن ثم التنجور (1400؟ - 1560) ومن ثم تدريجياً الفور (1650-1916م). تأثرت ممالك وسلطنات دارفور سياسياً بشكل أكبر بالتطورات في المناطق التي تقع غربها وشمالها بأكثر من تأثرها بالتطورات في منطقة النيل **6**. كان مركز الجذب لهذه التطورات في مملكة كانم/برنو الكائنة حول بحيرة تشاد. كان لمملكة كانم/برنو تأثير كبير بسبب إنها سيطرت ولعدة قرون على طريق التجارة الرئيسي العابر للصحراء. في أول الأمر تم حكم مملكة كانم/برنو بواسطة الزغاوة حتي حوالي عام 1075م حيث قامت أسرة سيفو (الماغوتية السيفية) بالاستيلاء على الحكم. لم يكن توارث الحكم مسألة انتصار وهزيمة بل كان كل ملك يخلع الملك الذي قبله. نظراً لأن الإسلام انتشر عبر طرق القوافل التجارية فقد كان سكان مملكة كانم/برنو من أوائل من إعتنق الإسلام في تلك المناطق. وهذا لعب دوراً أساسياً في انتقال السلطة من الزغاوة لأسرة سيفو **7**.

الآن بالعودة إلى دارفور فإن الداجو هم أول من أقام دولة في منطقة جبل مرة. يعتقد بأن للداجو علاقة مع الزغاوة من خلال بعض قبائل وداي طبقاً لما أورده الآخرين **8**. ما حدث بالفعل: تراجع نفوذ مملكة الداجو عندما قام السيفية بنقل عاصمتهم من شرق بحيرة شاد لغربها بسبب قيام سلطنة البيلا في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. تم إحلال الداجو بشعب آخر يسمى التنجور. إن أصل هؤلاء التنجور أكثر غموضاً من أصل الداجو. يقول البعض أن التنجور جاءوا من الغرب عبر بلاد برنو وواي **9**. كان التنجور مسلمين وربما اعتنقوا الإسلام خلال فترة حكمهم لدارفور التي إنتهت في حوالي عام 1650م.

كان الفور يعيشون تحت نفوذ التنجور ولم يكونوا محتاجين لقتالهم من أجل السيطرة على مؤسساتهم. تزواج التنجور مع الفور وتدرجياً هيمن الفور على المملكة. كانت فترة حكمهم تعرف بسلطنة كيرا التي تم تأسيسها بواسطة سليمان سولونق في حوالي عام 1650م **10**. دامت سلطنة كيرا حتي عام 1916م عندما تم ضمها للسودان بواسطة الاستعمار الإنجليزي المصري. كان سكان المملكة يتكونون من خليط ومجموعات عرقية متنوعة عاشت معاً بدون نزاعات كثيرة. قام حكام سلطنة كيرا أولاً بتحسين علاقاتهم مع مملكة وداي الواقعة غربهم قبل أن يحولوا اهتمامهم باتجاه الشرق. لعدة قرون سيطر حكام كيرا على جزء كبير من كردفان. بدأ الحجاج من غرب أفريقيا بعبور سلطنة كيرا باتجاه النيل وكانوا يعبرون نهر النيل من دنقلا للوصول إلى للبحر الأحمر ومن ثم مكة المكرمة بواسطة المراكب. جعلت هذه الحركة المستمرة من وإلى مكة المكرمة مصحوبة بالتجارة (في الغالب تجارة الرقيق) سلطنة كيرا مزدهرة وجعلت سلاطينها حريصون على حماية طرق القوافل. قام سلاطين كيرا بدعوة التجار العرب من شمال أفريقيا ومن مناطق النيل للاقامة في سلطنتهم. من وقت لآخر كانت تنشب نزاعات بين سلطنة كيرا وسلطنة سنار بسبب كردفان حتي عام 1785/1784م. لقد سيطر حكام سلطنة كيرا على كردفان إلى حين قيام خديوى مصر محمد على باشا بارسال قواته نحو الجنوب في عام 1821م بحثاً عن العبيد لجيشه.

3 - تقلي

كانت كل من سلطنة سنار وسلطنة كيرا تعتبر كردفان ولاية تابعة لها. كان لسلطنة سنار تأثير ونفوذ كبير في جنوب كردفان بينما كان لسلطنة كيرا تأثير ونفوذ كبير في شمال كردفان وكانت كل منهما تنافس الأخرى للسيطرة على وسط كردفان. لا يوجد ما يشير بأن أى من السلطنتين إستطاعت أن تحقق نفوذاً كبيراً. بمعزل عن حملات اصطياد الرقيق الموسمية والحملات المرتبطة بجمع الضرائب والمكوس فقد تركت السلطنتان أهالي كردفان في شأنهم لمعظم الوقت. من المفترض بشكل عام أن أهالي شمال ووسط كردفان المحليين كانوا يتكونون من شعب النوبة الذين اختلطوا مع المستوطنين العرب القادمين بشكل مستمر أو تراجعوا إلى ملاذاتهم في جبال النوبة في جنوب كردفان.

في واقع الأمر كان هناك مركز سلطة للنوبة بحقق وحقيق: مملكة تغلي: التي تقع في جبال تغلي في الشمال الشرقي من جبال النوبة. أول وصف تم تقديمه عن مملكة تغلي كان بواسطة الرحالة جيه. بروس الذي قضى بعض الوقت في سنار في عام 1772م والذي قال أن هناك العديد من القرى التي تحيط بسنار كان يسكنها رقيق مجلوبين من جبال النوبة وبشكل رئيسي من جبال الداير وتغلي. شكل الجنود النوبة فرقة المشاة لجيش سلطنة سنار 11. سلطت المدونات التاريخية لسلطنة الفونج مزيداً من الضوء فيما يتعلق بطبيعة مملكة تغلي وعلاقتها مع سلطنة سنار. في عام 1650م قام السلطان بادي الثاني بمهاجمة مك (سلطان) تغلي بسبب أن رعاياه قاموا بسرقة ونهب قوافل الحجاج المتجهة والقادمة من مكة المكرمة. استسلمت مملكة تغلي لسلطنة سنار وقامت بدفع ضرائب سنوية في شكل عبيد 12.

إزداد نفوذ مملكة تغلي بشكل كبير ومنذ ذلك الوقت ظهر مقولة وجود 99 جبل في جبال النوبة: وكان يقال أن مكوك (سلاطين) تغلي كانوا يحكمون ما يزيد عن 99 جبل الأمر الذي منحهم مجداً كبيراً. وعندما بلغت مملكة تغلي أوج عظمتها في العقود الأولى من القرن الثامن عشر فقد لعبت دوراً كبيراً في الجبال المحيطة بها مثل جبل رشاد وجبل قدير وحكمت العديد من القبائل التي تتحدث اللغة العربية الموجودة في حدودها الشرقية كما قامت بالسيطرة على تجارة الذهب (التي كانت متمركزة في جبال شيبون) وكان تتلقى كذلك الضرائب من العديد من القبائل البعيدة 13. وبينما تلاشي نفوذ سلطنة سنار تدريجياً وانتهى تماماً بحملة الجيش التركي فقد استطاع مكوك (سلاطين) تغلي المحافظة على ملكهم حتى قيام الحكم الثنائي.

4 - البقارة

البقارة هم ثاني أكبر المجموعات السكانية التي تؤثر على الأوضاع في كردفان. قبائل البقارة هم رعاة ماشية ويعتبرون أنفسهم عرباً متحدرين من عبد الله الجهني. لقد وجدت في الأمر صعوبة للحصول على فكرة واضحة لأصل القبائل المنتمة لجهينة وكيفية ترحالهم وتجوالمهم في السودان والطريقة التي استوطنوا بها في كردفان. تم توضيح هذه الصعوبات بواسطة البروفيسور يوسف فضل حسن:

"يشمل الجهنيون القبائل العربية التي تحمل ذلك الاسم والمجموعات الأخرى التي تلحق نفسها بعبد الله الجهني وأصبحوا مرتبطين به ويتابعون أوامر نسبهم وإنتسابهم لأصل وهمي أو شبه وهمي. لقد فقد مصطلح جهينة معناه الحقيقي وأصبح يعني فقط العرب وهم يشكلون بشكل خاص جميع القبائل الرعوية" 14.

لأجل التوضيح أود أن أصف بعض الجوانب التي اعتمدت في جمعها على الممارسات السائدة لدى سكان كردفان لمتابعة إنتسابهم لعبد الله الجهني.

أ - جهينة

القبائل الجهنية الأولى أتت من الجزيرة العربية لمصر عبر الموجه الأولى من الفتوحات الإسلامية العربية. ومن مصر انطلقت هذه القبائل لشرق السودان حيث استوطن البعض منهم وسط قبائل البجا وتحرك الآخرون تدريجياً نحو الغرب. وربما أتت بعض المجموعات الجهنية الأخرى للسودان عبر البحر الأحمر. كل هذه الهجرات حدثت عبر حقبة زمنية طويلة امتدت من القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الثالث عشر الميلادي.

إلى حد كبير كانت بلاد البجا بمثابة المعبر الذي مرت منه القبائل العربية إما من مصر أو مباشرة عبر البحر الأحمر متجهين نحو النيل 15.

ب - جذام

كان هناك طريق ثاني لهجرة القبائل العربية يمتد من غرب النيل باتجاه دارفور وشمال كردفان هاجرت عبره العديد من القبائل العربية. لقد تابعت القبائل العربية المهاجرة نهر النيل من مصر حتى دنقلا ومنها اتجهوا ناحية الجنوب الغربي عبر الصحراء بواسطة درب الأربعين حتى وصلوا دارفور. وكانت القبائل العربية المنتمية لجذام تشكل أغلبية هذه القبائل العربية المهاجرة. ونظراً لأن الموجات الأولى من القبائل العربية التي هاجرت لغرب السودان استوطنت في سهول دارفور تدريجياً فإن القبائل التي هاجرت مؤخراً توجهت غرباً ودخلت مناطق نفوذ مملكة كانم/برنو **16**. في خطاب موجه لسلطان مصر المملوكي بتاريخ 1391م اشتكى سلطان كانم/برنو من قسوة العرب الذين غزوا البلاد واسترقوا أهلها بهدف التجارة وطلب من السلطان استخدام نفوذه لوقف هذه المخالفات **17**. وسواء حقق هذا الخطاب النتيجة المنشودة أم لا فإن التاريخ لم يكشف ذلك.

من بين العرب الذين استوطنوا سهول دارفور وشمال كردفان نجد قبيلة الكبابيش وقبيلة فزارة. يبدو أن الكبابيش يتحدرون بشكل أساسي من جذام ولاحقاً انضمت إليهم قبائل عربية أخرى أتت من المناطق النيلية. قبيلة فزارة من قبائل شمال أفريقيا العربية التي هاجرت إلى مصر في القرن الرابع عشر ومن هناك توجهت للسودان. كل من قبيلة الكبابيش وقبيلة فزارة ادعيتا لاحقاً إنهما ينتميان لهيئة ولكن لم يتأكد من صحة هذه الإدعاء **18**.

ج - البقارة

أخيراً وصلنا إلى القبائل التي تسمى نفسها البقارة. في حوالي 1500م تم استيطان سهول شمال دارفور وشمال كردفان بالقبائل العربية وكذلك المناطق الغربية منهما في مملكة وداي/برنو. القبائل العربية التي استوطنت شمال دارفور وشمال كردفان كانت ترعى الإبل والضأن.

القبائل العربية التي وصلت مؤخراً والتي لم تجد مكاناً في المنطقة إتجهت ناحية الجنوب أي إلى جنوب كردفان وجنوب دارفور. وبالرغم من أن الحزام الجديد غني بالمراعي فإنه لم يكن مناخياً صالحاً لتربية ورعي الإبل أو الضأن. تدريجياً قامت القبائل العربية بتربية ورعي الماشية مثل السكان المحليين وبذلك أصبحوا معروفين بشكل جماعي بالبقارة **19**.

أصل البقارة غامض نوعاً ما. هم يدعون بأنهم متحدرون من هيئة ولكن رواياتهم الشفهية توضح بأنهم جاءوا إلى كردفان من تونس وفزان (في ليبيا). علق ماكمايكل على ذلك قائلاً هناك كثير من عدم المصادقية (البهارات) في نسب البقارة. وهو يرى أن البقارة جاءوا من الشمال عبر الممالك النوبية وليس لهم علاقة بعرب هيئة الذين جاءوا من الشرق **20**. نفي العالم جين كلود زيلنتر أي هجرات للقبائل العربية بشكل كبير من شمال أفريقيا إلى منطقة بحيرة شاد قبل تحرك القبائل العربية في عام 1842م من فزان لمملكة كانم (شرق بحيرة شاد) **21**. يقر البقارة اليوم عدم اتساق رواية مجيئهم عبر تشاد ولكنهم يؤكدون أنهم متحدرون من هيئة. وتظل الفكرة هي أن عرب هيئة جاءوا من الشرق وليس من الشمال عبر مسار النيل. وطبقاً لما أورده البروفيسور يوسف فضل إنهم من المحتمل أن يكونوا أقرباء على علاقة بعيدة بعرب جذام وبعض القبائل الأخرى التي جاءت إلى السودان معاً **22**.

أهم قبائل البقارة في كردفان هم الحوازمة والمسيرية الحمر والمسيرية الزرق. بدأ البقارة في استيطان الأراضي الواقعة غرب وشمال جبال النوبة اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً. نوبة وسط كردفان الذين تم دحرهم بالفعل بالحمالات من سلطنات سنار وكيرا انسحبوا تدريجياً إلى الجنوب الأقصى. لقد كانوا لعدة قرون يعيشون في أمن وأمان نسبي بحسب ما أورد العالم جيه دبليو. سارجار:

"كان يتم زراعة السهول الكبيرة من الأرض المحيطة بجميع الجبال ولذلك عندما جاءت القبائل العربية التي كانت تبحث عن المراعي والماء لقطعان ماشيتهم المتزايدة إلى كردفان منذ حوالي 120 سنة مضت (حوالي 1800م) فإنهم بشكل طبيعي توجهوا جنوباً في هذه البلاد الرخية واقتسموها بينهم. وحيث أنه لم يتم مواجهتهم بأى اعتراضات في تلك السهول فإنهم قاموا بدحر النوبة إلى جبالهم وقاموا باستيطان أفضل الأماكن التي تحتوي مصادر المياه في تلك السهول. تروي القصص التي يرويها الآن البقارة أباً عن جد عن البلاد "الصفراء الغنية بالذرة" وتفيد الأسماء التي يتداولها سكان الجبال والوديان بأن تلك الأماكن التي هي الآن مجرد أراضي بور كانت مأهولة بالسكان وتتم زراعتها. وكمثال على ذلك فإن جبل السمسم الذي يبعد 10 أميال شمال جبل الغلفان حيث وجدت القبائل العربية كميات كبيرة من السمسم المخزن بما يوضح أن نوبة الغلفان كانوا يزرعون وقتئذ في تلك المناطق البعيدة من أماكن إقامتهم **23**".

تغير هذا الوضع بعد وقت قليل. وطبقاً لما أورده العالم جيه. دبلو. سارجر.

"بدأت حملات اصطياد الرقيق وتم محاصرة النوبة في الجبال. كان الإجراء المتبع هو أن كل فرع من قبائل البقارة يقوم بحماية الجبال الذي يقع في نطاق نفوذه بأكبر قدر ممكن مقابل تموينات الذرة والعبيد ويقوم بالهجوم متى أمكن على الجبال التي تحت نفوذ فروع قبائل البقارة الأخرى. ونتيجة لذلك توقفت الزراعة في السهول بسبب الخوف من الهجمات المباشرة لفرسان البقارة المرعيين. لأجل زراعة الذرة الخاصة باستهلاكهم بدأ النوبة في زراعة المناطق الجبلية لحماية أنفسهم من المجاعة ولكن المحاصيل التي يتم زراعتها في تلك الأرض غير الخصبة كانت في الغالب قليلة وغير كافية ولذلك فإنهم في الأوقات الصعبة يضطرون لبيع عبيدهم وفي بعض الأحيان أبناءهم لقبائل البقارة مقابل الذرة" **24**.

وكانت تلك هي البداية فقط.

4 - التركية

1 - محمد علي باشا

لأجل معرفة المرحلة التالية من التاريخ التي أثرت بشكل مباشر على النوبة علينا أن نتوجه للشمال: إلى مصر وإلى ما وراء مصر إلى تركيا **25**. منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي ظهرت قوة جديدة في تركيا حلت محل بقايا الإمبراطورية البيزنطية. سقطت القسطنطينية في عام 1453م وبدأت الإمبراطورية العثمانية تتمدد في المناطق التي كانت تحت سيطرة البيزنطيين. ناهضت أوروبا الوسطى (فقط) الفتوحات العثمانية لكن جنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط ومصر والساحل الشمالي لأفريقيا تم احتلالها وإدماجها في الإمبراطورية العثمانية.

في مصر قامت الإمبراطورية العثمانية بإحلال سلطنة المماليك. مع ذلك استمر نفوذ المماليك. لن نشغل أنفسنا بالتطورات في السلطنة العثمانية حتى عام 1798م عندما قام نابليون بونابرت بغزو مصر. كانت الإمبراطورية العثمانية وقتئذ في حالة تراجع وقام المماليك بنجاح بتحدي سلطات الباشوات (حكام مصر المعينين من قبل السلطنة العثمانية وكانت السلطنة العثمانية تعين باشا كل عامين). أدت تلك التطورات إلى فوضى لا ينبغي أن نزعجنا ولكنها أعطت نابليون بونابرت مبرراً لأن يغزو البلاد" لأجل استعادة سلطات العثمانيين". لم يعجب ذلك السلطان فسعى للحصول على مساعدة البريطانيين للسيطرة على مصر ولم يدم احتلال الفرنسيين لمصر أكثر من ثلاث سنوات. بعد عدة سنوات من الكفاح استطاع محمد علي باشا أن يصبح حاكماً لمصر تحت ولاية السلطان العثماني لكن في حقيقة الأمر بالاسم فقط.

حكم محمد على باشا مصر كما لو أنها كانت إقطاعيته الخاصة واستطاع أن يستعيد النظام للبلاد. بعد قتل قادة المماليك قام بتوسيع نفوذه. قام محمد على باحتلال ليبيا ومن ثم في عام 1820م أرسل ابنه اسماعيل للجنوب لغزو السودان. كان لمحمد على باشا أربعة أسباب للسعي والسيطرة على السودان: التخلص من بقايا المماليك الذين أقاموا في دنقلا، وللسيطرة على تجارة القوافل المتجهة للبحر الأحمر وللسيطرة على مناجم الذهب ولاصطياد العبيد لتعزيز القوة العسكرية لجيوشه. كان الغزو ناجحاً: هزم اسماعيل باشا المماليك وقضى على حكم سلطنة سنار في عام 1821م. في نفس العام قام صهر محمد على باشا - محمد بك الدفتردار - بالسيطرة على كردفان بعد دحر سلطنة كيرا. تم دحر آخر مركز للمقاومة في السودان في عام 1822م.

لقد كانت النتائج بالنسبة لسكان كردفان مرعبة. ومن الأفضل أن نعطي الفرصة لماكمايكل ليعبر عن ذلك:

"في حقيقة الأمر شهدت كردفان في السابق حروباً وإضطرابات لكن كانت الضرائب خفيفة وكان الحكام عادلون بمعايير تلك الأيام. الآن تغير كل ذلك: جنس أجنبي سيطر على البلاد وقام بإدارتها حصرياً لتحقيق مصالحه الخاصة بما يخالف العدالة وأي قانون إنساني".

بالإعتماد على كتابات بالم بيثريك استمر ماكمايكل في سرد الأوضاع حينئذٍ **26**:

" كان الدفتردار وحشاً بالغ القسوة وحكيت قصص مرعبة عن الفظائع التي قام بارتكابها هو و خلفه. كان المال والتمتع الدنيوية هي أهدافهم. لم يقيم الحكام العثمانيون فقط بسحق السكان المحليين بجبروت الحديد والنار ولكنهم في جميع الأوقات وعن قصد سرقوا واختلسوا حكومتهم على حساب السكان المحليين " **27**.

2 - حملات اصطياد الرقيق

كما أوردنا في الفصول السابقة كانت العبودية وتجارة الرقيق أمراً عادياً في السودان. اعتباراً من اتفاقية البقط المبرمة بين الفاتحين المسلمين والنوبيين، ومروراً بثروة سلطنة كيرا وجيش سلطنة سنار: كان الطلب شديداً على العبيد. وكان النوبة يعتبرون من أفضل العبيد. حتى سلاطين تغلي الذين هم نوبة في الأصل قاموا بشن حملات لاصطياد الرقيق من القبائل المجاورة. كان الرقيق من أهم "سلع التصدير" السودانية يليها الصمغ العربي والذهب وريش النعام. كانت سلطنة كيرا المصدر الرئيسي للرقيق حيث كانت تقوم بشن حملات لاصطياد الرقيق من مناطق أفريقيا الوسطى. أسهمت سلطنة سنار كذلك في انتشار تجارة الرقيق بإرسال النوبة عبر القوافل التجارية للشمال وللبحر الأحمر. لا توجد هناك أرقام دقيقة عن عدد الرقيق الذي تم تصديره ولكن يبدو أنه قبل التركية كان يتم تصدير حوالي 4,000 عبد سنوياً لمصر من أو عبر السودان **28**.

بعد احتلال السودان بواسطة المصريين، أصبح لتجارة الرقيق شأن آخر. كان محمد على باشا يرغب في إنشاء جيش مكون من السودانيين يساعده في التخلص من قواته المكونة من الألبان والأتراك المتمردين والقيام بالتمرد على السلطان العثماني **29**. وقد صرح للقنصل الفرنسي بأنه يرغب في خلق نظام جديد (جيش حديث) وبأنه يرغب في التخلص من الجنود والضباط غير المناسبين للخدمة العسكرية واستيعابهم في مشاريعه الزراعية والصناعية **30**. قام محمد على باشا باستمرار بمناشدة قواده العسكريين لجمع وارسال العديد من العبيد السودانيين حتي يتم تدريبهم في معسكرات التدريب بأسوان:

"أنت تدرك أن هدف جميع جهودنا وكل هذه النفقات هي بهدف استقطاب الزنوج. يرجى منكم إظهار الحرص على تنفيذ رغباتنا المرتبطة بهذا الأمر المهم" **31**.

بحلول عام 1823م تم إرسال 30,000 عبد بشكل أساسي من الجزيرة ومن كردفان لأسوان. تجاوز منهم 3,000 عبد حالة التغير المفاجئ في البيئة. رغم هذا الفشل الواضح استمر محمد علي باشا في طلب المزيد من الجنود العبيد لأجل تعزيز حامياته العسكرية في السودان ولأجل إنشاء كتائب جديدة لجيشه الخاص. تضاعف عدد العبيد الذين تم إرسالهم لمصر ليبلغ حوالي 10,000 - 12,000 سنوياً. إضافة إلى ذلك تم حجز عدة آلاف من العبيد ليعملوا جنوداً وضباطاً في الجيش المصري في السودان. لا تشمل هذه الأرقام عدد العبيد الذين تم بيعهم في الجزيرة العربية وتم إرسالهم عبر البحر الأحمر ولا تشمل كذلك عدد العبيد الذين تم الاحتفاظ بهم في السودان باعتبارهن محظيات (سراري) وخدم منازل وعمال. من الصعب تخيل حجم تجارة هذه التدفقات البشرية المستمرة المأخوذة من قلب أفريقيا بشكل أساسي عبر البر ومن خلال المستنقعات والصحاري وغابات السافانا اللانهائية!

في كردفان قام رستم بك بتنفيذ أوامر الحاكم العام للسودان على خورشيد باشا لشن حملات اصطياد رقيق في بلاد النوبة. قام رستم بك بأسر 1,400 عبد في عام 1830م و 1,500 آخرين في عام 1832م **32**. هذه الأعداد تمثل بعض العينات العشوائية. لا توجد هناك إحصائيات دقيقة عن عدد الأشخاص الذين تم أسرهم. إلى جانب الحملات العسكرية قام البقارة كذلك بمهاجمة قرى النوبة لأجل أن يقوم النوبة بدفع الضرائب التي فرضها الأتراك. توضح المذكرات التي كتبها الرحالة الأوروبيون تفاصيل كثيرة حول حملات اصطياد الرقيق وتجارة الرقيق.

ب - كردفان خلال الحكم التركي

بحسب استشهادات بالم:

"كان نائب الملك في مصر يسن سنوياً، مرة أو مرتين خلال العام، فرمانات (أوامر) لصيد الرقيق في جبال النوبة وفي البلاد المجاورة ويقوم بالاستيلاء على عدد معين من العبيد الزنوج بقوة السلاح... يتم تحمل عبء هذا المصير الدموي بشكل كبير بواسطة سكان جبال النوبة التعييسين. في عام 1825م - أي بعد أربعة أعوام من غزو الأتراك - قدر عدد الأفراد الذين وقعوا في الأسر أربعين ألف أسير وفي عام 1839م بلغ العدد الإجمالي على الأقل مائتين ألف أسير بدون الأخذ في الاعتبار الآلاف الذين استولى عليهم البقارة والذين تم شراءهم بواسطة الجلابة." **33**.

من الخطأ عزو الأرقام التي أوردها بالم بأنها مرتبطة بالنوبة فقط. كان على خورشيد باشا يقود شخصياً حملات لاصطياد الرقيق في مناطق الدينكا والشلك والإنقسنا والشعوب الأفريقية الأخرى **34**. وإننى اعتقد أن العبيد الذين تم الاستيلاء عليهم من هذه المناطق ما هم إلا جزء من المائتين ألف الذين ذكرهم بالم. لكن الأمر المهم أن العبيد المأسورين عانوا معاناة رهيبية. يقدم أرثر هولرويد شهادة عيان:

"كانت القوات المتموضعة في كردفان تسير سنوياً بعد الخريف إلى جبال النوبة بغرض اصطياد الرقيق من هذه الجبال. كانت هذه الحملات لاصطياد الرقيق تسمى بـ "الغزية" وعندما وصلت الأبيض كانت القوات عائدة لتوها مع مجموعة من العبيد الذين تم اصطيادهم في تلك الحملة. تم بيع الأسيرات الجميلات لحريم الأتراك والعرب وتم استيعاب العبيد الأقوياء في الجيش أما الرقيق الضعفاء من النوعين فتم تخصيصهم للجنود مقابل أقساط تدفع من رواتبهم. لقد شاهدت هذا التوزيع في مرة من المرات والمنظر الذى يجرح القلب والذى لا يمكن تصوره: أن هؤلاء الزنوج مأسورين من شهرين أو ثلاثة أشهر وتم حرمانهم من حريتهم شعروا بقسوة الانفصال الأبدى من عائلاتهم وأصدقائهم **35**.

في فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن الثامن عشر كانت حملات الرقيق موجهة لبحر الجبل وبحر الغزال وقام التجار الأوروبيون الباحثين عن العاج بكسر إحتكار الدولة لهذه التجارة وبدأوا بالإبحار في النيل الأبيض لاصطياد الأفيال وللتجارة مع السكان المحليين في جنوب السودان. سريعاً تلاشت الأفيال

من المنطقة واصبحت التجارة المربحة هي تجارة الرقيق. بدأ التجار العرب المشاركة في ممارسة هذه التجارة. كان التاجر الأكثر شهرة من بينهم الزبير رحمة منصور وقد بنى إمبراطويته الشخصية في بحر الغزال وكانت قائمة بشكل أساسي على تجارة الرقيق. قام الزبير باشا بتأسيس شبكة من أسواق تجارة الرقيق كانت تعرف بالزرائب وصلت لما يعرف اليوم بدولة أفريقيا الوسطى وجنوب تشاد. أدى ذلك تدريجياً إلى دخوله في مواجهات مع مصر.

3 - الخديوي اسماعيل باشا

الخديوي محمد علي باشا الذي سعى لأنها تجارة الرقيق فقط بلسانه توفي عام 1848م. لم يكن خلفاءه في الحكم راغبين في إنهاء تجارة الرقيق ولكن في عام 1863م تولى حفيده اسماعيل باشا السلطة وحمل لقب خديوي مصر. اعتبر الخديوي اسماعيل مشروع تحديث مصر رسالته الشخصية الأولى ومن الإنصاف القول إنه نجح لكن تم ذلك بتكلفة عالية. ضغط الخديوي اسماعيل على الشعب المصري وأرهقهم بالضرائب ودخل في ديون كبيرة حتى أن فرنسا وبريطانيا تدخلتا في شؤون مصر وتدرجياً تخلصتا منه في عام 1879م **36**.

أ - مكافحة تجارة الرقيق في السودان

للمفارقة فإن احتلال الأتراك للسودان الذي أدى إلى زيادة حجم تجارة الرقيق فتح البلاد كذلك للرحالة الغربيين. لقد زادت مذكرات الرحالة الغربيين الوعي في أوروبا بأن تجارة الرقيق عبر الأطلنطي ليست فريدة من نوعها. لقد بدأ مناهضي تجارة الرقيق البريطانيون بشكل خاص بطلب إنهاء تجارة الرقيق في مصر والسودان. في بداية الأمر لم تحقق اعتراضاتهم أثر كبير. لقد بدأ الطلب على الرقيق من مصر يقل في أربعينيات وخمسينيات القرن الثامن عشر بشكل رئيسي بسبب الأوضاع الاقتصادية. على أية حال، كان هناك إرتفاع شديد في تجارة الرقيق في ستينيات القرن الثامن عشر بعد استحداث زراعة القطن في مصر. اعتباراً من سبعينيات القرن الثامن عشر فصاعداً قلصت المساعي لمكافحة تجارة الرقيق الطلب من مصر بشكل كبير **37**.

كان الخديوي اسماعيل حريصاً على إنهاء تجارة الرقيق في السودان. بدأ الخديوي اغلاق طرق تجارة الرقيق الممتدة عبر النيل وعبر البحر الأحمر وأرسل جيشاً لبحر الغزال لإنهاء أنشطة الزبير باشا. على أية حال، هزم الزبير باشا قوات الخديوي وقام بتأسيس طريق بري جديد لتجارة الرقيق من مناطق جنوب دارفور يمر عبر جنوب كردفان ليصل الأبيض. فجأة اكتشف الخديوي اسماعيل إن أفضل طريقة لتهدئة الأوضاع في بحر الغزال هو أن يقوم بتعيين الزبير باشا حاكماً لتلك المنطقة وقد قام بذلك في عام 1873م. من ثم وجه الزبير باشا اهتمامه لدارفور التي كانت حتى ذلك الوقت مركزاً لتجارة الرقيق. قام الزبير باشا بالاستيلاء على الفاشر عاصمة سلطنة كيرا وعين نفسه حاكماً لدارفور ولكنه لما زار القاهرة في عام 1875 قام الخديوي اسماعيل بوضعه في المعتقل **38**.

كانت هناك مبادرة أخرى من الخديوي اسماعيل لإنهاء تجارة الرقيق تمثلت في ارسال المستكشف الإنجليزي السير صمويل بيكر للمنطقة المعروفة باسم الإستوائية. في حقيقة الأمر، كان الخديوي اسماعيل مهتماً بجعل جنوب البلاد تحت سيطرته ونفوذه ولكن الحملة كانت تستهدف رسمياً مناهضة تجارة الرقيق في مصادرها. قضى صمويل بيكر ثلاث سنوات في الإستوائية ولكنه استطاع فقط أن يخلق عداوة ضد السلطات المصرية. لقد نهب صمويل بيكر البلاد لتوفير الطعام لقواته واستخدم العنف بشكل مكثف وقام بإنهاء تجارة الرقيق مستخدماً نفس تجار الرقيق المفترض أن يقوم بطردهم من المنطقة. بإصراره على نجاح مبادرته قام الخديوي اسماعيل بإرسال شارلس جي. غوردون لتهدئة الأمور في الإستوائية ونجح غوردون في عام 1874م و خلال ثلاثة سنوات في أداء مهمته **39** بعدها

تم تعيينه حاكماً عاماً للسودان. بصفته حاكماً عاماً للسودان استمر غوردون في محاربة تجار الرقيق حتى تاريخ تقديم استقالته في عام 1879م مجهداً من العديد من سنوات العمل المتواصل.

ب - التطورات في جنوب كردفان

بالنسبة للنوبة تغيرت بعض الأمور أثناء حكم خلفاء الخديوي اسماعيل. توقفت بشكل رسمي الحملات الكبيرة لإصطياد الرقيق بمجئ الخديوي للسلطة لكن الحملات بواسطة البقارة وتجار الرقيق وحتى من القبائل المجاورة ظلت سبباً لعدم الأمن والأمان. تركت الإدارة المصرية معظم قبائل النوبة في حالهم وحتى تلك القبائل المتوقع أن تدفع الضرائب لم يعد يتم الضغط عليها بشدة مثل ذي قبل 40. ازدهرت مملكة تقلي بالرغم من أنها كانت مقيدة السلطات بواسطة الحكام المصريين لعدة عقود وقاومت محاولات المصريين لاجتياحها.

بحسب ما ذكر سابقاً، ومنذ احتلال السودان بواسطة الأتراك زار العديد من الرحالة الأوروبيين كردفان. في عام 1837م أرسل محمد علي باشا حملة لجبال النوبة - حيث كان يبحث عن الذهب - ونتيجة لهذه المغامرة نحن نستشهد بمذكرات المهندس الجيولوجي جوزيف روسجار الذي وصل حتى جبال تيرا. خلال حكم الخديوي اسماعيل بدأ الرحالة الأوروبيون يذكرون جبل الداير والدلنج كأماكن زاروها. أكثر المنظمات التي زارت جبال النوبة هي المنظمات التبشيرية الكاثوليكية التي كانت تقودها منظمة كمبوني. في عام 1875م أنشأت منظمة كمبوني مركز تبشيري في الدلنج تركته عندما قامت السلطات المصرية باجتياح جبل الدلنج. عاد المبشرون للدلنج عام 1877م وظلوا هناك حتى اندلاع الثورة المهديّة. كتب أحد المبشرين وهو جي. مارتيني:

"بالرغم من أن هؤلاء الناس غير مسلمين فإن لديهم استعداد كبير لقبول تعاليم وعادات المسلمين بحسب ممارسة البقارة لها والذين يعيشون في جوارهم ... تعلم النوبة من المسلمين القسم بالقرآن والنواح على الميت والإيمان بمحمد باعتباره رسول الله وبعض الأمور الأخرى" 41.

من خلال بعض المراجع القليلة المتوفرة يظهر انطباع بأنه كان هناك نوع من الاستقرار. بعد عدة عقود من الإستغلال والحملات المكثفة لإصطياد الرقيق في جبال النوبة، بدا أن السلطات المصرية كانت راضية بالسيطرة الإسمية للجبال وتركت النوبة لحالهم باستثناء بعض الجماعات التي تثور بشكل أو آخر (مثل تقلي والدلنج). ظلت العلاقة بين البقارة والنوبة متوترة واعتباراً من سبعينيات القرن الثامن عشر استطاع النوبة تسليح أنفسهم بالبنادق. ينبغي علينا أن ندرك أن النوبة لم يكونوا أبرياء أو لا يملكون قوة الدفاع: لقد كانوا يقومون بشن حملات وغارات على بعضهم البعض كما كانوا يقومون بشن غارات على البقارة كذلك. لقد ظهر أثر الإسلام واضحاً في الجبال الشمالية و استطاع المبشرون الكاثوليك تعزيز نفوذهم في الدلنج مما يدل على الاستقرار المستمر.

ج - تدخل البريطانيين في شؤون السودان

أنفق الخديوي اسماعيل الكثير من المال في مشاريعه التنموية. لم تكن كل ثروات مصر والسودان لتغطي هذه المصروفات. لقد باع حصته الكبيرة في قناة السويس للبريطانيين ولم تكن إيراداته تغطي ديونه. أفلس مصر. قام البريطانيون والفرنسيون لأجل حماية مصالحهم بوضع الخديوي في الإقامة الجبرية في عام 1876م. وعندما لم يتعاون معهم قام البريطانيون بالتواطؤ مع السلطان في القسطنطينية الذي قام بعزله عام 1879م وتعيين ابنه بدلاً عنه. تدهورت الأوضاع في مصر في السنوات التالية وهددت الثورة بتدمير جميع المشاريع الاستثمارية الأوروبية في البلاد والتجارة عبر قناة السويس. قرر البريطانيون غزو مصر لاستعادة النظام وظلوا في مصر حتى عام 1956م 42.

4 - المهديّة (1881- 1899م)

1 - الحاكم العام: غردون

قام تشاركس غوردون بمحاربة تجارة الرقيق لمدة عامين من عام 1877م وحتى عام 1879م ولكنه لم يستطع إنهاءها بشكل دائم. لقد كانت مقاومة تجار الرقيق وتأثير العائلات المرتبطة بها قوي جداً. قد يتطلب الأمر جيش كبير لقمع تجار الرقيق وببساطة لم يكن هناك مال كافي: لقد أعلنت مصر الإفلاس وكانت ميزانية السودان محدودة جداً ولم تكن إنجلترا مستعدة لدفع مبالغ لأي عملية كبيرة الحجم في السودان. بالضغط من الحكومة البريطانية، تراجع غوردون من سياسته الحذرة وقام بتعيين أجنبى في مناصب محافظي (حكام) المديرية (الولايات) واستبدل الإداريين المصريين بأوروبيين وتحول في سياسته واستخدم العنف لقمع تجارة الرقيق. أدى ذلك إلى قيام العديد من الثورات في كردفان وبحر الغزال ودارفور. وباستخدام المزيد من العنف استطاع الحاكم العام غوردون السيطرة على البلاد. وعندما تم استبدال الخديوي اسماعيل ببنه قام غوردون بتقديم استقالته لقد كان مرهقاً.

لم يكن خلف غوردون محمد رؤوف الحاكم العام يمتلك نصف مهارات غوردون، ساستشهد فيما يلي بفقرة كبيرة من كتابات موافى لانها تلخص الأمور بشكل وافى:

"أدت سياسة القهر إلى تدمير وسخط السودانين لأنهم كانوا يعتقدون أن الرق مسموح به في دينهم. وفي حقيقة الأمر كان يتم تنفيذ حملات مكافحة الرق بواسطة المسيحيين مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة ضد دينهم. إضافة إلى ذلك، فإن محاولات قمع تجارة الرقيق اصطدمت بمصدر مهم للثروة وهزت الأساس للاقتصاد المحلي والزراعي الذي كان يعتمد على عمل الرقيق. [لقد تحصل عدد كبير من العبيد على حريتهم ولكن لم يتم تعويض أسيادهم عن الخسائر التي تكبدوها. برغم خسائر السكان الإقتصادية ظلت الضرائب ثابتة ... لم تبدى حكومة رؤوف باشا رحمة في تحصيل الضرائب وكان يتم استخدام العنف المكثف لتحويل الضرائب. في الجانب الآخر، سمح رؤوف باشا باستمرار تجارة الرقيق ... ظهور الإمام محمد أحمد المهدي أتاح الفرصة لظهور القيادة الضرورية لتوحيد جميع القوى الساخطة في البلاد لأجل انهاء الحكم المصري في السودان]" 43.

2 - الإمام محمد أحمد المهدي

كان الإمام محمد أحمد المهدي داعية شاب أقام في الجزيرة أبا القريية من كوستي. وكان يدعو الناس للسلوك الديني القويم وقد اتبعت العديد من المريدين. في عام 1881م ادعى محمد أحمد بن عبدالله أنه المهدي المنتظر وأنه سيحرر المسلمين من الظلم والجبروت وطبقاً للأحاديث النبوية فقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهور مهدي في آخر الزمان من عترته يماثل اسمه اسمه وسيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. لقد ادعى العديد من الأشخاص المهديّة عبر القرون.

لقد كان الإمام محمد أحمد المهدي رجلاً زاهداً وورعاً طاف معظم أرجاء السودان وقاده طوافه في السودان إلى كردفان حيث شعر بجاهزية الثورة لدى السكان وقبولهم لأي شخص ينهي معاناتهم. تنامت شهرة الإمام المهدي وزاد أتباعه ومريديه. وانضم إليه في عام 1880م رجل من دارفور يسمى عبد الله محمد. هذا الرجل من البقارة ومن قبيلة التعايشة ساند المهدي وكان شخصية مهمة في الدولة المهديّة وقد خلف الإمام المهدي بعد موته في عام 1885م. وكما يقول ماكمايكل:

"هذا الرجل من أعظم مناصري المهدي لأنه كان ملماً بأحوال قبائل البقارة المتمردة وكان له تأثير كبير عليهم. وبناء على مقترحاته قام الإمام المهدي بجولة ثانية في كردفان بخطة محددة لتعزيز روح الثورة والتمرد المتنامية هناك" 44.

خلال جولته الثانية في كردفان حصل الإمام المهدي على الدعم والمساندة من العديد من الزعماء والشيوخ ذوي النفوذ لدى قبائل البقارة. سعى المهدي للحصول على مساندة سلطان تقلي آدم دبالو. كان السلطان حذراً ووعده بأن يظل على الحياد في حالة قيام الإمام المهدي بالثورة. رجع الإمام محمد أحمد المهدي بعد ذلك للجزيرة أبا وهناك في عام 1881م أعلن بشكل رسمي إنه المهدي المنتظر وقام بإرسال الوفود لمختلف زعماء وشيوخ القبائل والمريدين للانضمام لرسالته الإلهية. يقول البعض أن السلطات المصرية أصبحت حذرة عندما دعا الإمام المهدي المواطنين بإيقاف دفع وتسديد ضرائبهم. في تعميم (منشور) قام بإصداره الإمام المهدي في الفترة بين نوفمبر 1881م ونوفمبر 1882م أوضح المهدي:

"إن هؤلاء الأتراك بالرغم من أن الله ورسله أمرهم بالافتداء بدين الله إلا أنهم حكموا بغير وحي الله وغيروا شريعة سيدنا محمد رسول الله وشوهوا دين الله وفرضوا الضرائب على رقابكم وعلى بقية المسلمين ... لقد قام الأتراك بقهر رجالكم وقيدهم في الأغلال وأخذوا نساءكم وأبناءكم ووضعوهم في الأسر وقتلوا الأنفس بغير حق" **45**.

سعت السلطات المصرية لاختتام الثورة بإرسال قواتها للجزيرة أبا لكن أتباع المهدي هزموا القوات المصرية. وبمعرفة الإمام المهدي بأنه لن يستطيع الإقامة بعد ذلك في الجزيرة أبا فقد هاجر مع أتباعه الأنصار إلى كردفان. وطبقاً لما أورده استيفنسون:

"لقد قيل إن المهدي لما وصل إلى تقلي مرة أخرى رغب المهدي في الإقامة هناك لمدة من الزمن لكن تم إقناعه للاستمرار في المسير باتجاه الجنوب" **46**.

قام المهدي بنشر دعوته في جبل قدير ورحب به المك. وطبقاً لما أورده الأستاذ إدوارد لينو لم تكن هذه مجرد مصادفة.

"كانت الجزيرة أبا في ذلك الوقت، 1881م، جزء من مملكة رث (ملك: بسطة دنيوية ودينية) الشلك. وكان مقر رث الشلك في فاشودة وما زال حتى هذا التاريخ. لقد كان لوالد الإمام محمد أحمد المهدي علاقة مصاهرة مع عمدة الجزيرة أبا. ونيابة عن الإمام المهدي وعندما اشتعلت الثورة قام عمدة الجزيرة أبا بإرسال وفد لرت الشلك حاملاً رسالة للرت فحواها "إن هذا ابن بنتنا ... وهو يسعى لإنقاذ شعبنا من العبودية وقهر الأتراك". وبدلاً من أن يذهب المهدي هناك مباشرة قام بالاتصال بالنبوة لأنه كانت توجد هناك علاقة وطيدة بين النبوة في الجبال الشرقية ورث الشلك" **47**.

كان من الضروري إحضار عدة أشياء لمناسبة تتويج رث الشلك من جبال النبوة. من بين هذه الأشياء جوهرة مضيئة **48**. أياً ما كانت الحقيقة في هذه الرواية من الأفضل تركها وإنني لم أجد مبرر آخر لذهاب الإمام المهدي لجبل قدير. هناك تفسير جيد فيما يتصل برغبة الإمام المهدي في انطلاق دعوته من جبل قدير:

"كان الإمام المهدي في كل عمل من أعماله يتبع سنة سيدنا محمد رسول الله بهدف ترسيخ دعوته بين الناس. لذلك كانت هجرة الإمام المهدي من الجزيرة أبا لجبل قدير في كردفان تماثل هجرة سيدنا محمد رسول الله للمدينة المنورة عندما هدده المشركون في مكة المكرمة. بالمثل كان أول أتباع الإمام المهدي يسمون الأنصار مثل الصحابة من أنصار سيدنا محمد رسول الله. وأخيراً، عندما وصل الإمام المهدي جبل قدير في جبال النبوة أعادته تسميته بـ "جبل ماسة" متبعاً سنة سيدنا محمد رسول الله **49**.

روى أحد مساعدي الإمام محمد أحمد المهدي:

"عندما كنا في قدير زاد أتباع الإمام المهدي وكان النوبة يطعموننا. كان الخليفة عبدالله مع الإمام المهدي لكنه كان رجلاً لم تكن له أهمية كبرى". **50**.

كثير مما حدث في السنوات التالية قام القس جوزيف أو هوالدر، أحد المبشرين في الدلنج، بوصفه على النحو التالي: هاجم الأنصار الدلنج بشكل متكرر وتمكنوا من اجتياحها. تم أخذ أو هوالدر بصفته أسيراً وحفظ في الأسر لمدة عشر سنوات **51**. هزم المهدي العديد من الحملات العسكرية التي تم إرسالها لمحاربه واستطاع السيطرة على الأبيض في عام 1883م. تم سجن السلطان آدم دبالو كذلك في عام 1884م ومات في الأسر. بينما كان المهدي يركز على فتح الخرطوم قام مساعده حمدان أبو عنجة بمواصلة تعزيز سلطات المهدي في كردفان. ويقول أو هوالدر:

"معظم سكان جبال النوبة أرسلوا وفوداً ليقولوا إنهم من رعايا وأنصار المهدي" **52**.

ربما تكون هذه مبالغة لكنني أعتقد أن قبائل الجبال الشمالية اعترفت بسلطات المهدي. فقط القبائل المقيمة في جبل الداير هي التي حاربت الإنصار.

3 - عبد الله بن محمد التعايشي: خليفة المهدي

تحرك المهدي صوب الخرطوم ولم ترغب الحكومة البريطانية في إيقافه. على كل، كان السودان يعتبر مشكلة لمصر وليس مشكلة لبريطانيا. قامت الحكومة البريطانية بالطلب من تشارلس غوردون تأمين الإنسحاب الآمن للقوات البريطانية والمصرية من السودان. أورد غوردون في مذكراته عن اجتماع مجلس الوزراء الأخير المنعقد في 18 يناير 1884م ما يلي:

"في الظهيرة جاء ولسلي إلى وأخذني للوزير ورجع إلى وقال: "ترغب حكومة ملكتنا أن تفهم هذا. إن الحكومة مصممة على إخلاء السودان لأنها لا تضمن تصرف الحكومة القادمة. يجب أن تذهب وتقوم بذلك؟" قلت له "نعم". قال لي: "أدخل عليهم" فذهبت والتقيت بهم (مجلس الوزراء)، فقالوا لي: "هل أخبرك ولسلي بأفكارنا؟" قلت لهم: "نعم" لقد قال لي: "إنكم لا تضمنون تصرف الحكومة القادمة في السودان وأنتم ترغبون مني الذهاب للسودان وإخلاء القوات من هناك". فقالوا لي (مجلس الوزراء): "نعم"، وانتهى الأمر **53**.

لسوء حظ غوردون وعند وصوله السودان كان طريق الشمال مقطوعاً وتمت محاصرته في الخرطوم. أرسل المهدي له عدة خطابات مهذبة يطلب منه الإستسلام وإعتناق الإسلام حتى يتم إنقاذ حياته **54**. رفض غوردون ذلك وفي 26 يناير 1885م جئ برأسه لخيمة المهدي. بعد ستة أشهر من سقوط الخرطوم توفي المهدي بمرض التايكويد. وخلفه عبد الله بن محمد التعايشي الذي صار خليفة للمهدي. قام الخليفة عبدالله بحكم السودان الشمالي من بلاد البجا وحتى دارفور. ليس من شأن هذه المقالة الدخول في تفاصيل حكم الخليفة المضطرب، ولكننا سنستعرض ما حدث من التطورات في جبال النوبة.

لأجل حصار أم درمان والخرطوم أمر المهدي جميع الرجال القادرين من قبائل البقارة في كردفان للانضمام لجيشه في حربه ضد الأتراك. قام معظم رجال قبائل البقارة بالانضمام لجيش المهدي بدون رغبة خائفين من العقوبات القاسية. قام الأمير أبو عنقرة باخماد ثورة قامت بها قبائل البقارة التي لم تكن تريد المشاركة في حروب المهدي وقام بمهاجمة جبال النوبة لاصطياد الرقيق الذين يمكن أن يلحقوا بجيش المهدي. بعد موت المهدي صارت الأوضاع تحت حكم الخليفة سيئة بالنسبة للنوبة. تم قتل أبناء السلطان آدم دبالو سلطان تقلي عندما رفضوا إرسال جنود لجيش الخليفة واستمرت القبائل المقيمة حول جبل الداير في المقاومة وتم مهاجمة قبيلة الغلفان عندما وجدت مجموعة من النوبة اللاجئين هناك. أخيراً

ترك الأمير أبو عنقرة جبال النوبة في أبريل 1887م ومعه مجموعة كبيرة من أسرى النوبة 55. استمر خلفاءه في حملات السلب والنهب.

صارت حملات اصطياد الرقيق التي يقوم بها البقارة في جبال النوبة قليلة بسبب أن معظم رجال البقارة صاروا بعيدين من المنطقة. في واقع الأمر، بدأ بعض النوبة بشن حملات ضد مراكز جيش الخليفة – أنصار المهدي. بالمقابل قام زعماء جبل الداير بتوقيع اتفاقية مع حاكم الأبيض المعين من الخليفة. فتحت هذه الإتفاقية التجارة مع الأبيض. في نفس الوقت، كان على الخليفة عبدالله مواجهة البريطانيين (سنوضح المزيد من تفاصيل تحركاتهم في الفصل التالي). أمر الخليفة بإحضار المزيد من رجال البقارة لأم درمان وتم تجميع جيش جبار في كردفان هيمن على البلاد. تم تقريباً افراغ العديد من الجبال من السكان مثل جبل الغلفان ودبريا والكدرو. تم أخذ العديد من رجال ونساء جبال الميري لأم درمان. تم هزيمة جيش الخليفة في عطبرة وتراجع الخليفة مع مجموعة من الأنصار لمنطقة جبال النوبة. في نهاية الأمر، تم قتل الخليفة عبد الله في 24 نوفمبر 1899م بواسطة ونجت باشا.

عاد النوبة الذين تم أسرهم بواسطة جيش الخليفة وتم إرسالهم لأم درمان تدريجياً لمواطنهم في جبال النوبة. عاد النوبة ومعهم الإسلام بعد أن احتكوا بالمسلمين في الشمال لعدة سنوات. وعادوا كذلك ومعهم أسلحتهم النارية. انتشار الأسلحة النارية على نطاق جبال النوبة استلزمته حاجة البقارة لحماية قطعان ماشيتهم. جعلت هذه التطورات مهمة تهدئة قبائل النوبة أكثر صعوبة للبريطانيين الذين تولوا حكم وإدارة كردفان 56.

7 – الحكم الثنائي (1899م – 1956م)

1 – إعادة احتلال (استعمار) السودان

في عام 1884م قررت الحكومة البريطانية عدم التدخل في السودان. طلبت الحكومة البريطانية من غوردون تنظيم عملية اخلاء البريطانيين والمصريين من الخرطوم والإستعداد لتأمين الحدود بين مصر والسودان. بعد ثمانية سنوات بدأ هزرت كتنشر بالاستعداد لإعادة احتلال السودان. ما الذي تغير؟

لكي نبدأ، هناك طموحات المهدي وخليفته. كتب المهدي خطاب موجه لعائلات فاس يحتوي ما يلي:

"فالتعلموا إنني عما قريب سأأتي إن شاء الله إلى مصر برعاية الله لأن الأمور في السودان اكتملت" 57.

حاول الخليفة عبدالله غزو مصر في عام 1889م ولكن تمت هزيمة قواته هزيمة نكراء من قبل الجيش المصري الذي تم إعادة تنظيمه بواسطة البريطانيين. إذا لم يتم مناوشة الحركة المهدية فبالتأكيد أنها ستحاول غزو مصر مجدداً. لكن ليس هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الحكومة البريطانية تقرر العودة للسودان.

اشعل احتلال بريطانيا لمصر التنافس الأوروبي لاستعمار دول أفريقيا. كل من البريطانيين والفرنسيين والبرتغاليين والإيطاليين والألمان: كلهم كانوا يرغبون في الحصول على مستعمرة في القارة الأفريقية. في مؤتمر برلين المنعقد في 1884/1885م إتفقت القوى الإستعمارية على القوانين التي بموجبها ستتنافس أفريقيا. كانت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى طموحتان: رغبت فرنسا في خلق حزام مستعمرات يمتد من سواحل غرب أفريقيا حتى سواحلها الشرقية. كانت بريطانيا العظمى تهدف لتحقيق نفس القدر من النفوذ يبدأ من رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا وينتهي في مصر. كانت الفكرة من وراء ذلك هو ربط هذه المستعمرات الكبيرة بخطوط سكك حديدية ومواصلات نهرياً لضمان الوصول إلى الموارد الثمينة المتوفرة وسط القارة وخلق اسواق كبيرة عبر القارة الأفريقية. من الجلي وبمثل هذه

الطموحات فإن استعمار السودان يعتبر أمراً منطقياً. إن السبب الأول والأخير لاستعمار السودان هو أن الحكومة البريطانية اجتهدت للسيطرة على منابع ومسار نهر النيل. لقد كانت مياه النيل دائماً أمراً بالغ الأهمية لإقتصاد مصر وفكر البريطانيون بالفعل في بناء سد كبير للرى في أسوان.

بدأ الغزو الفعلي للسودان في مارس 1896م. لقد استغرق الغزو عامين و نصف قبل احتلال أم درمان (سبتمبر 1898م) وسنة أخرى قبل هزيمة بقايا جيش الخليفة (نوفمبر 1899م) في نفس الوقت كان على البريطانيين أن يتوجسوا خوفاً ليس من جيش الخليفة فقط بل من توجهات الحكومة الفرنسية التي أرسلت قوات من الكونغو برازافيل (زائير حالياً) للسودان لأجل إنشاء مركز في النيل الأبيض وادعت أن منطقة فاشودة محمية فرنسية. وصلت القوات الفرنسية في يوليو 1898م. في سبتمبر من نفس العام قامت الحكومة البريطانية بإرسال كتشنر لأعلي النيل بقوة من الزوارق الحربية. كان التنافس بين فرنسا وبريطانيا العظمى نتيجة منطقية لطموحاتهما الإستعمارية في أفريقيا التي تصادمت فعلياً في منطقة فاشودة. لقد تغلبت الدبلوماسية على المواجهة العسكرية، وفي واقع الأمر من الأفضل القول أن الفرنسيين لم يكونوا أقوى بما فيه الكفاية للسيطرة على فاشودة ولم يكونوا يرغبون كذلك بتحمل مخاطرة دخول حرب شاملة مع بريطانيا العظمى. لذلك، وبنهاية العام انسحبت القوات الفرنسية تاركة كل السودان لبريطانيا العظمى.

2 - الحكم الثنائي

في 19 يناير 1899 وقعت بريطانيا ومصر اتفاقية الحكم الثنائي التي تم بموجبها حكم السودان بشكل مشترك بينهما. في واقع الأمر قام البريطانيون بتولى الحكم بينما قام المصريون بتنفيذ سياستهم وتسيير فاتورة الحكم أو كما أوردت صحيفة لندن تايمز في 18 أبريل 1900م:

"قام رجلان بشراء حصان بشكل مشترك. ساهم "أ" بثلاث الثمن وساهم "ب" بثلاثي الثمن. قام "أ" بركوب الحصان وقام "ب" برعايته ودفع تكاليف معيشتة. هذا تقريباً الوضع في السودان" **58**.

خلال الخمسة وعشرين سنة الأولى من الحكم الثنائي كانت معظم القوات في السودان من المصريين. بعد استقلال مصر عام 1922م قام البريطانيون بأمر جميع المصريين بمغادرة السودان وقاموا بحكم السودان منفردين بالرغم من أن البنود الرسمية لإتفاقية الحكم الثنائي لم يتم تغييرها. لإجل إحلال القوات المصرية تم إنشاء قوة دفاع السودان من جنود سودانيين وضباط بريطانيين. بحلول عام 1951م طلبت مصر من بريطانيا الإنسحاب من السودان. وافقت الحكومة البريطانية على الجلاء من السودان في عام 1953م عندما اعترفت مصر بحق السودان في تقرير مصيره. في 1 يناير 1956م قام البريطانيون بالجلاء من السودان واستقلت البلاد **59**.

طوال مدة الحكم الثنائي، ترددت بريطانيا فيما يتعلق بمستقبل ومصير السودان خاصة في ظل صعوبة حل مشكلة المديرية الجنوبية وإلى أين سيتم ضم هذه المديرية. ثقافياً من الأفضل أن يتم ضم هذه المديرية للمحميات البريطانية في شرق أفريقيا (حالياً: كينيا، يوغندا وتنزانيا) لكن في نفس الوقت يرتبط جنوب السودان بشماله بعدة روابط. لا توجد هناك طرق أو شبكة سكك حديدية أو اتصالات بين جنوب السودان ومحميات شرق أفريقيا. كانت معظم التبادلات التجارية مع الشمال وبشكل كبير عبر التجار العرب. كان الجنوب يفقد الأشخاص المؤهلين لتولي المناصب الإدارية كما كان يفقد كذلك القدرات لتطوير مشاريع اقتصادية كبيرة. كان العديد من الجنوبيين يعيشون في الشمال بصفتهم عمالة مهاجرة. إلى جانب الروابط الاقتصادية من المستحيل فصل السودانين من أصول أفريقية والسودانيين من أصول عربية في عدة مناطق مثل مديرية (ولاية) بحر الغزال على سبيل المثال.

خلال السنوات العشرين الأولى من الحكم الثنائي لم يكن للبريطانيين سياسة رسمية تجاه جنوب السودان. استتاب الأمن وتهدئة الأوضاع: التنظيم الإداري وتأسيس حدود قومية واضحة كانت هي الأولوية العليا. إعتباراً من عام 1922م فصاعداً اجتهد البريطانيون بشدة لتطوير الجنوب بمعزل عن الشمال. يبدو إن انتشار الإسلام كان هاجسهم الرئيسي بسبب إنه كان يسير بنفس خطى التوجهات القومية. تم إنشاء جمعية اللواء الأبيض في بواكير العشرينات من القرن التاسع عشر وهي قد ثارت في عام 1924م ضد الوجود البريطاني في السودان. قائد حركة اللواء الأبيض هو على عبد اللطيف الذي كان ضابطاً في الجيش وهو متحدر من أبوين كانوا عبيداً. كان أبيه من قبيلة النوبة وأمه من قبيلة الدينكا وربما العكس. هذا الأمر لا يبرهن بأية حال أنه كان من أوائل دعاة ومناصري قضية النوبة لأنه كان وطني التوجه وكانت حركة اللواء الأبيض تكافح من أجل الإتحاد مع مصر. كان على عبد اللطيف يؤمن بأن البلدين يربطهما النيل والإسلام والثقافة العربية.

في محاولة لإيقاف التأثير الوطني بدأت الإدارة البريطانية في الجنوب العمل لصالح السلطات المحلية. تم حظر التجار العرب من الدخول لجنوب السودان وفي نفس الوقت تم إيقاف هجرة العمالة من الجنوب للشمال. تم دعوة المنظمات التبشيرية المسيحية لبناء المدارس على نطاق الجنوب والقيام بالتدريس باللغة الإنجليزية بدلاً من اللغة العربية. في نهاية الأمر فشلت هذه السياسة تماماً: ظلت مستويات التنمية في الجنوب متخلفة عن مستويات التنمية في الشمال. طالبت الحركة الوطنية الناشئة في الشمال باحترام وحدة السودان. في نفس الوقت كانت الحركات الوطنية الناشئة في المحميات البريطانية بشرق أفريقيا غير متحمسة لإضافة مشاكل منطقة كبيرة غير متطورة لمشاكلها. هذا الأمر أحدث تغييراً جذرياً في السياسة البريطانية: اعتباراً من 1946م فصاعداً تم تشكيل مستقبل الجنوب ليكون في إطار السودان الموحد **60**. هل إنني أحتاج لأن أضيف بأن السياسة البريطانية أسهمت في اندلاع النزاع بين الجنوب والشمال؟

3 - إدارة جبال النوبة

تم تطبيق نفس السياسة التي طبقت في الجنوب على جبال النوبة. منذ أن قام البريطانيون بترسيخ سلطاتهم بدأوا في العمل في فصل النوبة من العرب. بدأ تطبيق هذه السياسة بدون الأخذ في الإعتبار تطبيق إدارة مشتركة مع الجنوب ولكن في ظل فكرة حماية النوبة من الإنصهار في الثقافة العربية المحيطة بهم. لعبت التوجهات الشخصية دوراً كبيراً في هذا التوجه. كان المسئولون البريطانيون متخوفين من أنه بدون ترتيبات وقائية فقد يتحول النوبة إلى هجين نصف عربي منحل. أو بحسب ما أورد استنفنس:

"أفضل أنواع النوبة في نظر العديد من المسئولين البريطانيين كانوا أولئك النوبة غير الملوئين بالتأثير العربي أو بتأثير الإختلاط بالعرب وهو يقول إن العناصر المختلطة مثل الليري وتلودي والكرو والداجو قرب لقاوة شبه العرب كانوا يعتبرون تعساء وفاسدين" **61**.

ربما كان استنفنس يشير إلى قول فايسر مايلز:

"إنني أود أن أركز على عدم الرغبة في حصول انصهار بين العرب والنوبة ... لأن النتيجة دائماً هجين عربي غير مستقيم وسكير ليس لديه أصل أو عرف يحفظه من التلوث والفساد" **62**.

وافق على ذلك استنفنس عام 1984م (!):

"هناك بعض الحقيقة في هذا الأمر فعندما تفقد بعض القبائل مزدوجة الثقافة العديد من الخصائل الحميدة في ثقافتها القديمة وتأخذ الخصائل القبيحة من الثقافة الجديدة فعندئذ يصبح من الصعب إنكار العديد من الشواهد" **63**.

تدريجياً أصبح من الواضح أن سياسة الفصل كانت غير عملية على الإطلاق خاصة في جبال النوبة مقارنة بالجنوب. لا توجد هناك حدود واضحة بين العرب والنوبة واقتصادياً يرتبط النوبة بالشمال أكثر من الجنوب. كما في الجنوب، غير البريطانيين سياستهم مائة وثمانين درجة. سنبحث لاحقاً في التغييرات في السياسة البريطانية بشكل أكثر تفصيلاً. في نفس الوقت يجب أن نأخذ في الاعتبار بأن تكلفة الاستعمار كانت أكثر من الإيرادات في كردفان. كان يجب على مجموعة قليلة من المسؤولين البريطانيين بموارد مالية ضئيلة ومجموعة قليلة من الموظفين الشماليين المحافظة على إستيئاب الأمن واستقرار الأوضاع في مديرية (ولاية) كبيرة. بهذا الوضع من السهل تفهم أنه رغم النوايا الطيبة للعديد من الإداريين البريطانيين في هذا المجال فقد تم تحقيق مستويات متدنية من التنمية الاجتماعية والاقتصادية في هذه المنطقة.

منذ عام 1898م وحتى 1912م كانت جبال النوبة جزءاً من مديرية (ولاية) كردفان وإعتباراً من عام 1913م وحتى عام 1928م كانت تسمى مديرية جبال النوبة وكانت عاصمتها تلودي. كانت مديرية جبال النوبة مقسمة لثلاثة مناطق (مراكز) المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية والجبال الجنوبية. وكان كل مركز يديره بشكل مباشر مفتش مركز ومساعد مفتش مركز بريطاني يسانده مأمور ونائب مأمور مصري **64**.

كان مفتش المركز يوصف بساطة بأنه صاحب كل المهن: فهو ينظر في الحالات المدنية والجنايئة ويشرف على الشرطة والسجون ويقوم بترتيبات تقييم وتحصيل الضرائب وإنشاء الطرق والكباري والمنازل ويساعد في رسم الخريط ويشجع التنمية الاقتصادية وبناء مرافق الحجر الصحي ويعمل باستمرار بصفته مستشار طبي ومستشار لطبابة النساء في مركزه **65**.

لأجل ممارسة بعض الصلاحيات على نطاق مختلف القبائل لجعلها تدفع الضرائب وعدم الاعتداء على جيرانهم النوبة والبقارة كان مفتش المركز يفوض شخص في المجتمع القبلي يكون مسؤولاً عن أداء هذه المهام. كان مفتشوا المراكز يعتبرون الكجور أكثر الشخصيات تأثيراً في القبيلة. ينقسم الكجور لعدة أنواع فمنهم أطباء الأعشاب والمعالجين التقليديين ومنهم رجال ونساء من ذوي النفوذ والتأثير الكبير لهم مكانة رجال الدين المتخصصين في الجوانب الروحانية. من هؤلاء الكجور كان الإداريون البريطانيون يختارون الكجور المتخصص في انزال المطر ليحمله مك (زعيم) جبل أو سلسلة جبال. كان يتم تفويض المك ببعض الصلاحيات وبالتالي كان من المفترض عليه جعل مواطنيه يعملون كما يؤمرون. كانت هذه السياسة غير فعالة لأن صلاحية الكجور في المقام الأول كانت محدودة وفي الغالب الأعم لا تعتمد على مهاراتهم عند تنظيم الحملات ضد جيرانهم من المجتمعات الأخرى **66**.

4 - استيئاب الأمن وتهدة الأوضاع

في سعيهم لتهدة الأوضاع واستيئاب الأمن في كردفان قام البريطانيون أول الأمر بالتركيز على القبائل العربية التي ساندت الإمام المهدي. بأخذ هذا الأمر في الإعتبار، قام النوبة أول الأمر بدفع الضرائب المفروضة عليهم والتي اعتبروها وسيلة حماية من القبائل العربية. وعندما تم نزع السلاح من القبائل العربية لم يرى النوبة أية مبرر لدفع الضرائب وبدأوا مقاومة الحكم البريطاني. في واقع الأمر لم يتفهم البريطانيون هذا الأمر: لقد قام البريطانيون بحماية النوبة من قهر الدراويش والبقارة وبالمقابل يتمرد النوبة ضد نفس السلطات التي حققت لهم الأمن؟ هناك وصف واحد لهذا التصرف: عدم التقدير. إذا لم يقم الآن مكوك النوبة بتنفيذ أوامرنا...:

"يمكن إخضاع الشعوب المتخلفة وغير المتعلمة مثل سكان جنوب كردفان فقط باشعارهم بحقارتهم وباستعراض القوة ويجب تلقينهم وإعطائهم دروس ملموسة عن سلطة الحكومة لتعزيز الحكم متى كان ضرورياً. لهذا السبب فإنني اعتبر زيادة عدد الحاميات في جنوب كردفان أمراً ضرورياً وكذلك تزويد الدوريات بعدد كافي من القوات لأجل إخافة السكان المحليين" 67.

قام البريطانيون بشن العديد من الحملات العقابية إعتباراً من عام 1903م فصاعداً ضد مختلف القبائل بمختلف الأسباب. وصف فرانسيس بلفور الذي كان يعمل نائب مفتش في جبال النوبة عام 1916م الدوريات العادية على النحو التالي:

"من وقت لآخر يقوم جبل من الجبال بالعصيان، وهي كلمة تعني باللغة المحلية شيئاً قريباً أو أقل من التمرد. يقوم السكان بالتراجع لقمم الجبال ويفضلون ذلك بعد موسم الحصاد الذي يمكن تخزينه في العديد من الكهوف إذا كانت هناك تهديدات خطيرة: دفع أتوة لجار مهاجم أو استسلام بعض مرتكبي الجرائم أو تسليم ممتلكات مسروقة - باختصار مهما كان نوع المطالبة - يتم في العادة رفض ذلك وتحدى السلطات. الخطوة الثانية في اللعبة هو إرسال قوة صغيرة مختلطة تلتقت تدريباً ميدانياً مع عدد كافي من الرصاص يتم إطلاقها في الهواء ويتم أمر الرجال بخفض رؤوسهم، وعادة ما تكون الإصابات بين الطرفين قليلة. في نفس الوقت يتم فرض الشروط ويتم قبولها، لقد تم منح ميدالية الخدمة الممتازة للدورية رقم ... على العموم يتم التصالح بواسطة الجميع" 68.

ويلمح جستن ويليز بأن العديد من هذه الدوريات لم تكن تتجنب الإيذاء والضرر وكانت تتم بشكل مستمر:

"إلى الآن قمت بتحديد سبعة وعشرين دورية في جبال النوبة كانت الواحدة منها تشمل أكثر من سرية من الجنود: نقلتي 1903م، الداير 1904م، كيترا 1904م، شات الصافية 1905م، النيمق 1908م، و 1917م، برهام 1908م، كتالة 1909م، و 1910م و 1925م، تاقوي 1910م، تيرا الليمون 1910م، كيمالا 1911م، كرونقو بخيت 1911م، هيبان 1911م، تيرا الخدار 1912م و 1913م و 1915م و 1922م، تنديلا 1913م، ماندال 1914، ميري 1915م، كواليب/ليرا 1919م، تولوشي 1926م و 1945م، جلود 1926م واللافاوقا 1929م" 69.

أصابته هذه الدوريات العديد من الضحايا من النوبة. تم أخذ العديد من الرجال كأسرى وتم إجبارهم للإلتحاق بالخدمة العسكرية. وتم سلب ونهب الماشية وحرقت القرى. كانت أكبر دورية من بين هذه الدوريات هي الدورية رقم 32 الموجهة ضد جبال النيمق. رفض مك النيمق تسليم بعض الشباب المطلوبين لحملات إصطياد الرقيق. تطورت الأمور وخرجت من السيطرة عندما قام الكجور المعروف بالسلطان عجينا باشعال العصيان ضد السلطات البريطانية. كان البريطانيون يعاملون الدورية باعتبارها عملية عسكرية تضم أكثر من 3,000 جندي ومزودة بزخائر وبنادق ماكسيم. تمت الإحاطة بالجبال المتمردة وتم إخلاء السكان بالقوة بينما تم تجويع الآخرين لأجل الإستسلام. تم قتل 500 من رجال النوبة. دعوني أستشهد ببعض الأسطر من تقرير رسمي:

"في منتصف ليلة السادس من يناير 1918م تم القيام بمحاولة جريئة للهروب بواسطة معظم سكان ساجان وكوشي. بالنزول من الجبال بأعداد كبيرة مر رجال النوبة بالقرب من الزريبة المجاورة للركن الشمالي الغربي من ساجان ولكنهم توجهوا نحو الغرب بسبب نيران الكتيبة الرابعة ودخلوا في خطوط قوات الهجانة رقم 1 وبسبب كثرة الأعداد إجتاز اثني عشر منهم الزريبة وتم اصطياد معظمهم بواسطة العرب الذين هرعوا لجبل كومورو عند سماع اطلاق النيران. تم ارجاع البقية للجبال بخسائر كبيرة في الأرواح بسبب نيران المسدسات وبنادق الماكسيم. توفي منهم خمسة وخمسون شخصاً وجرح عشرة

وجدوا ملقيين في أو أمام الزربية وكانت هناك مجموعة كبيرة انسحبت بعيدا لتموت في الجبال أو ليقعوا في أيدينا مأسورين ومصابين بجراح" 70.

استمرت الدوريات حتي عام 1930م وكانت هناك واحدة أخرى في عام 1945م ضد تولوشي. تُظهر التقارير والصور للأكوخ المحروقة وخطابات البريطانيين المشاركين في الدورية صورة مختلفة عما أورده نادل من ملاحظات عابرة على سبيل المثال:

"خلال الأيام الأولى من الحكم البريطاني تم اجبار بعض القبائل المتمردة والمعاندة لاخلاء جبالهم والانتقال للاستيطان في الوديان لمصلحة الأمن العام" 71.

ما الذي جعل استيفنس يفهم مهام الدوريات؟ لقد كتب استيفنس:

"في العديد من الحالات كان يتم تركيز القوات للقيام بالدوريات ضد القبائل المعاندة والمتمردة التي رفضت "الخضوع". قد يكون من العسير حصر جميع المواجهات والمعارك في هذا المقام. لقد تم شن بعض المعارك الأولى ضد نوبة شات الصفية وجبل الداير وتاقوي والنيمق وكاتالا وتم مهاجمة العديد من الجبال أكثر من مرة. كان متوجبا استمرار هذه الدوريات لعدة أسباب ولعدة سنوات حتى توقفت تدريجياً وانتهت تماماً في عام 1930م" 72.

لم يشير استيفنس للعنف وحرق قرى النوبة والعديد من الإصابات بينهم. قد يكون ذلك "من العسير"؟ على أية حال، حدث ذلك بتلك الطريقة ومن وجهة نظرنا، بعد ما يقارب قرن من الزمان، قد نتعجب ونتساءل ما هو الفرق بين سياسة استتباب الأمن البريطانية ومساعي حكومة السودان في السنوات الأخيرة لأجل إخماد تمرد آخر في جبال النوبة؟

5 – المناطق المقفولة

قام الموظفون السودانيون بإدارة معظم المراكز في الجنوب وانتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية بشكل مطرد مع التجارة وهجرة العمالة وشعر البريطانيون بأنهم مجبرين لإيقاف هذه التطورات. لم يكن الأمر فقط حماية النوبة بل بالتأكيد أن البريطانيين سعوا لتطبيق قانون المناطق المقفولة الصادر في عام 1922م على جبال النوبة. كانت الحركة الوطنية المصرية دافع خفي للبريطانيين للحد من أو لإستئصال التأثير العربي في الجنوب وجبال النوبة. أوضحت ثورة اللواء الأبيض في عام 1924م أن العديد من الجنوبيين والنوبة الذين عملوا في الجيش قد يصابوا بحمي الوطنية. يجب أن لا يسمح لهم بالاحتكاك بالسودانيين من ذوى الأصول العربية. نتيجة لذلك تم حظر السفر من جبال النوبة للمناطق الأخرى ومن المناطق الأخرى لجبال النوبة وتم تقييد هجرة العمالة وتم حظر التجار العرب وتم ايكال التجارة (للمسيحيين) الأغريق والشوام 73.

بلا شك كانت هجرة العمالة أكبر إهتمامات البريطانيين. ولسخرية الأقدار فقد تم تشجيعها في بادئ الأمر بواسطة الإدارة البريطانية:

"لقد تم بناء خزان سنار ولم يتمكن المقاولون من الحصول على عدد كافي من العمالة السودانية لمختلف الوظائف. [...] كان عرب الليري من الحوازمة والرواوقه والكواهلة من الرقيق أول من هاجر للبحث عن عمل، ومن ثم تبعهم النوبة. ربما يصاب مفتش المركز الحالي بالذهول عندما يعرف أن المفتش الذى سبقه قام بإقناع النوبة والعرب على حد سواء وبكلمات معسولة ووعود بالحصول على رواتب وأجور كبيرة للذهاب للبحر (سنار) للعمل! يجب إيجاد العمالة. يجب تنمية وتطوير السودان. في الجبال سكان مناسبين للعمل" 74.

تم ترك عدد قليل من الرجال للعمل في المزارع في الجبال. عندما يعود العمال المهاجرين للزواج كانوا يدفعون مهوراً كبيراً أكثر من ذي قبل للآباء. ارتفعت المهور الأمر الذي حفز المزيد من الرجال للهجرة والبحث عن عمل. كانت هناك وسيلة أخرى لاكتساب المال تتمثل في الالتحاق بالجيش وقد قام الكثير من أبناء النوبة بالالتحاق بالجيش.

6 – زراعة القطن

تكلفة الإدارة في السودان كبيرة خاصة في مناطق مثل جبال النوبة حيث كانت إيرادات الضرائب ضئيلة. لمعالجة هذه المشكلة قام البريطانيون باستحداث زراعة القطن في المنطقة باعتباره محصول نقدي. إن تجارة القطن لن تزيد إيرادات الضرائب فقط بل قد تحل العديد من المشاكل الأخرى: العمل في مزارع القطن سيوقف شباب النوبة من الهجرة للمدن في الشمال، تأمين المياه لن يوفر فقط مياه الري للقطن بل سيوفر للناس مياه عذبة، طرق المواصلات ستصل المناطق المعزولة وبالتالي ستجعل هذه الأمور من السهل تسجيل وإدارة عموم شعب النوبة.

كان استحداث زراعة القطن عملية ناجحة واعتباراً من عام 1927م تم إنشاء المحالج في تلودي وكادوقلي و لافاوة والدنج وأماكن أخرى. ما لم يدركه البريطانيون هو دور أصحاب المشاريع العرب (الجلابة كما يطلق عليهم): بعد زمن وجيز صار 80% من إنتاج القطن يتم في المزارع التي يمتلكها العرب. كان النوبة في الغالب الأعم يتجمعون للعمل في مزارعهم البعيدة على أساس الأجر اليومي. بدأ النوبة في بيع بعض الذرة المنتج في مزارعهم وكذلك السمسم: تحسنت مستويات المعيشة. ونتيجة لذلك، تأثرت ثقافة النوبة بتأثير التبادل النقدي والإحتكاك المباشر بالسودانيين من أصول عربية.

7 – اللامركزية والحكم المحلي

لأجل مناهضة التوجهات الوطنية والإتحادية رغب البريطانيون في تعزيز السلطات المحلية والقبلية، وقاموا باستحداث الحكم غير المباشر لشمال السودان من خلال قانون صلاحيات وسلطات شيوخ القبائل الرعوية الصادر في عام 1922م. لأجل تعزيز موقف شيوخ القبائل الرعوية فقد تم منحهم صلاحيات قضائية. تم تطبيق هذا القانون على قبائل البقارة في جبال النوبة في عام 1926م مصحوباً بقانون محاكم القرى. لم يتم تطبيق هذه القوانين على قبائل النوبة: كانت معظم قبائل النوبة مجزأة ولم تكن السلطة مؤسسية بشكل واضح لديهم.

ظل النوبة تحت نظام الحكم التقليدي لحين استحداث قانون سلطات شيوخ القبائل عام 1927م. جاء هذا القانون في ظل "الإدارة المحلية" التي تسمح بإدارة "الشرطة المحلية" وجمع الضرائب. قام البريطانيون بإنشاء ثلاثة مستويات من المحاكم من المستوى المحلي للمستوى الإقليمي. يتولى رئاسة المحكمة الشيخ أو المك. يمكن للشيخ أو المك البت في مختلف الحالات حسب قدرة المحكمة أو رفعها لمحكمة أعلى. كان يسمح للشيخ أو المك بفرض غرامات على المدانين أو سجنهم **75**. قد يكون المك في السابق كجوراً أما الآن فيمكن أن يكون موظف سابق أو على الأقل شخص يعرف القراءة والكتابة **76**.

تطلب تنفيذ قانون سلطات شيوخ القبائل إصلاحات إدارية. كان البريطانيون يعملون بحذر لأجل إقامة كوندريالية لقبائل النوبة. يمكن أن تشمل الوحدات الإدارية عدة قبائل ويمكن في بعض الأحيان أن يقيم كل من النوبة والعرب في منطقة (مركز) واحدة. هكذا كان الحال في مملكة تقلي على سبيل المثال والتي واجهت كل الإضطرابات واصبحت بشكل رسمي تحت إدارة مك تقلي.

بحلول عام 1929م تم إعادة رسم الحدود الإدارية: تم دمج مديرية (ولاية) جبال النوبة في مديرية (ولاية) كردفان. من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تعتبر المديرية (الولايتان) مترابطتان بشكل كبير

حيث يصعب إدارتهما بشكل منفصل. كردفان هو إسم المديرية الموحدة التي تشمل جبال النوبة بمراكزها (مناطقها) الأربعة: الجبال الغربية، الجبال الشرقية، جنوب كردفان والجبال الجنوبية. لم يترك البريطانيون السياسة المرتبطة بجعل النوبة والعرب منفصلين: في واقع الأمر قام البريطانيون في بعض الأحيان بالخروج من مسارهم برؤية أن التأثير العربي يمكن تقليصه لأدنى حد **77**.

8 - السياسة البريطانية تجاه النوبة

بالرغم من تقلص منوال الدوريات بنهاية العشرينيات من القرن التاسع عشر، صار واضحاً وجلياً أن الحكم المباشر لم يكن ذا جدوى. تم تحميل مديري المراكز بأعباء إضافية ولم يحقق المكوك توقعات البريطانيين بدون فقدان سلطاتهم أمام الشباب في المجتمع. كما أوضحت سابقاً، كانت الإدارة البريطانية تسعى لتحديد أي مستقبل يمكن أن تقدمه للنوبة. أوضح المستر جيه. ايه. جيلان حاكم كردفان في الفترة من 1928م وحتى 1932م ما يلي:

"هل نستطيع تطوير هيكل أو مجموعة هياكل إدارية لتناسب جميع هذه الثقافات المختلفة والمستويات الحضارية المختلفة؟ هل نستطيع في نفس الوقت المحافظة على أفضل الجوانب الثقافية لدى النوبة لتسير جنباً إلى جنب مع الحضارة والثقافة العربية؟" **78**.

هل تستحق عاداتهم وثقافتهم المحافظة عليها بينما هم يتعلمون الوقوف على أرجلهم أم هل نقف على جنب وندعهم ينزلقون في المجهول... الثقافة العربية، قبل أن يدركوا ذواتهم وكيونتهم؟ **79**.

بالرغم من ذلك الوقت يمضى بسرعة. في عام 1930م اشتكى مفتش مركز الدلنج من أنه لا توجد سياسة مهما كانت لتوجيه عملية تكامل النوبة مع البيئة الاقتصادية المحيطة بهم.

تقع أهمية الأمر في التطور الإقتصادي للعرب. من المتوقع أن تزيد الإتصالات بين النوبة والعرب. لأسباب اقتصادية ينبغي أن يتمازج الجنسان وإذا إقتضى الأمر صياغة سياسة خاصة بالنوبة ينبغي أن يتم توضيحها وينبغي أن يتم صياغتها الآن **80**.

في مذكرته التي كتبها عام 1931م قدم جيلان تحليلاً للمشكلة. كما قدم سلسلة من الترتيبات العملية. سعى خلفه المحافظ دوجلاس نيوبولد (محافظ من 1932 وحتى 1936م) لمعالجة المسائل المختلفة التي تم طرحها في المذكرة وكان واقعياً فيما يتصل بتلك المشاكل:

السياسة البريطانية تجاه النوبة طبقاً لما ورد في مذكرة السيد جيلان المطبوعة وبعد اعتمادها من الحكومة المركزية هي سياسة تمدن وتحضر ايجابية قائمة على أفضل العادات والجوانب الثقافية المحلية. إنها لا تهدف لعزل النوبة في قفص زجاجي ولا لجعل جبال النوبة محمية بشرية بل هي تسعى لتطوير حضارة وثقافة النوبة من خلال قادة وزعماء النوبة ومجتمعات النوبة **81**.

في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر سعى السير انجوس جيلان، حاكم كردفان، لتغيير المد. وقد كتب للحكومة في الخرطوم ما يلي:

"بناء على ذلك أود أن أطلب:

1. إلى أقصى حد ممكن يجب على الإدارات الحكومية تعيين العمالة من مناطق أخرى بخلاف جبال النوبة.

2. يجب على محافظي المديرية الشمالية تسريح وإبعاد النوبة من العمل". (جيلان 1931م).

في خضم مشكلة الإدارة البريطانية في جبال النوبة وصف عثمان أ. إبراهيم (1985م) رد الفعل لهذا الطلب قائلاً:

"في العديد من الحالات التي قام فيها النوبة بمغادرة الجبال بحثاً عن العمل في المديرية الأخرى كان يتم اعادةهم للجبال بدون أخذ رغباتهم في الاعتبار للمدى الذي يتم فيه إصدار تذاكر سفر لهم بالسكة الحديد حتي الأبيض. لم تكن هناك في أول الأمر مخصصات رسمية لإعادتهم وكان النوبة العائدين يتم الحاقهم بالعمل في دلامي ويتم خصم تكاليف سفرهم من رواتبهم وأجورهم".

9 - التعليم

كانت السياسة البريطانية تجاه النوبة غير عملية و ضد مصلحة النوبة. أفضل مثال على ذلك هو موضوع التعليم في مناطق السكان المحليين. لما يقارب العشرين عاماً تم السماح لـ "بعثة السودان التبشيرية المتحدة"، وهي منظمة تبشيرية بروتستانتية من نيوزيلندا واستراليا للعمل في المدارس الأولية (الإبتدائية) في هيبان وعبرى وكاودا والمورو وتابانا بدون تحقيق أى تقدم وتطور في مجال التعليم. "منظمة الرسالة الكنسية" التي بدأت العمل في المناطق الغربية في عام 1933م لم تحقق كذلك أى تقدم وتطور في مجال التعليم. لم يكن لدى هذه المنظمات التبشيرية الموارد الكافية وكان البريطانيون يغيرون سياستهم باستمرار. ماذا لو تم التفكير في تدريس أبناء النوبة اللغة العربية المكتوبة بالخط الروماني؟ في نفس الوقت سمح البريطانيون بالتدريس بمنهج عربي في المدارس الإبتدائية التي تعمل بانتظام في المناطق التي يسكنها العرب **82**.

كان دوجلاس نيوبولد، محافظ كردفان للفترة من عام 1932م وحتى 1936م ، أكثر واقعية من المحافظ الذي سبقه:

"السياسة البريطانية تجاه النوبة ... لا تهدف لعزل النوبة في قفص زجاجي ولا لجعل جبال النوبة محمية بشرية بل هي تسعى لتطوير حضارة وثقافة النوبة من خلال قادة وزعماء النوبة ومجتمعات النوبة" **83**.

أدرك نيوبولد الحاجة لتعليم نظامي. تم فتح مدارس أولية (ابتدائية) حكومية في عبرى وكاودا وسلارا وكاتشا. أصبحت اللغة العربية لغة التدريس. بحلول عام 1940م لم يعد أبناء النوبة مقيدين في خياراتهم للالتحاق بالمدارس. صارت "بعثة السودان التبشيرية المتحدة" تقدم تعليم نظامي أولي في المدارس المعروفة بمدارس الغابة. استمرت "بعثة السودان التبشيرية المتحدة" في مجال التعليم الأولي وفتحت مدرسة وسطي (متوسطة) في كاتشا **84**.

10 - تغيير السياسة البريطانية

في نهايات الحرب العالمية الثانية أقر البريطانيون بالصعوبات الاقتصادية والجغرافية لفصل جنوب السودان عن عموم السودان:

"إن سياسة حكومة السودان بخصوص جنوب السودان هي العمل على حقيقة أن سكان جنوب السودان أفارقة وزنوج بشكل متميز لكن الجغرافيا والمعطيات الاقتصادية تتحدان (...). لتجعلهم مرتبطين بشكل لا ينفصل لأجل التطور المستقبلي بشمال السودان الشرق أوسطي العربي الثقافة: ولذلك ولأجل ضمان أنهم، بالتعليم والتنمية الاقتصادية، يتم تأهيلهم للاعتماد على أنفسهم في المستقبل بصفتهم، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، أنداد لشركاءهم في السودان المستقبل" **85**.

للأسف بالنسبة للنوبة لم يكن هناك أى أساس لتطوير قيادات محلية. وطبقاً لما ذكر نادل:

"واجهنا في جبال النوبة مشاكل خلق وإنشاء بدلاً من تطوير. ما زالت المؤسسات السياسية المحلية بشكل كبير في مراحلها التخليقية. ولا تمتلك المستلزمات الأساسية في نظرنا للقيام باستغلالها أو البناء عليها. بشكل أكثر تحديداً، هناك القليل من قبائل النوبة التي تمارس نظام شيوخ القبائل القديم أو شكل من أشكال القيادة التي لا يمكن تفويضها بالمهام السياسية الحديثة" **86**.

مع ذلك قام البريطانيون في السنوات التالية بضمان أن جميع القبائل يتم حكمها بواسطة زعماء محليين وفي الغالب قامت بإجبار السكان لقبول الزعماء والقادة الجدد بدلاً من أعراف السلطات التقليدية. أصبحت اللغة العربية هي اللغة المستخدمة في المدارس وتم بذل الجهود لتطوير زراعة القطن (الذي عاني من مشكلة هجرة العمالة والخدمة في الجيش) وتم حفر الحفائر وخزانات المياه وتشبيد الطرق. ولم يتم إلا بذل القليل جداً من الجهد لتجهيز النوبة لاستقلال السودان. وطبقاً لما أورده استيفنس كان النوبة يندمجون ببطء في المجتمع:

بنهاية فترة الحكم الثنائي وجد النوبة الكثير من فرص التوظيف في الخدمة العامة حيث عملوا كمعلمين وموظفين ومساعدين طبيين وممرضين وفي المحلات التجارية والمكاتب وفي خارج نطاق الجبال في المصانع وفي الحملات الصحية وفي السكك الحديدية (...). لعدة سنوات كانوا أفراداً مقتدرين ومتميزين للإلتحاق بالجيش والشرطة. تطورت الأوضاع الصحية (...). أصبح الآن لكل مدينة رئيسية مستشفى خاص وهناك العديد من المستوصفات الطبية المزودة بمساعدين طبيين في العديد من المراكز الصغيرة. تم إنشاء محاجر صحية للمجذومين اعتباراً من عام 1936م (...). بالرغم من التدفق عليهم من العالم الخارجي بمزيد من التنظيم والتوجيه والتغير في المظهر الخارجي للملابس والطعام والعمل ما زال النوبة الحيويون جميلوا المحيا محافظين على استقلالية مظهرهم والكثير من صراحتهم وبساطتهم" **87**.

الحواشي والمراجع

1. R. Iyob and G. M. Khadiagala: Sudan: The Elusive Quest for Peace (2006), pp.23.
2. H. A. MacMichael: The Tribes of Northern and Central Kordofan, 1912.
3. Ibid.
4. S. F. Nadel: the Nuba, an anthropological study of the Hill Tribes in Kordofan, 1947, pp. 360.
5. J. Spaulding: A Premise for Precolonial Nuba History; History in Africa, Vol. 14 (1987), pp. 369-374.
6. The wide plains of Kordofan between Darfur and the Nile served as a buffer. There was a trade road to Egypt though, known as the 40 day track.
7. D. Lange: Ethogenesis from within the Chadic state: some thoughts on the history of Kanem-Borno; Paideuma 39, 261-277
8. H. R. Palmer: The Kingdom of Gaòga of Leo Africanus Part I; Journal of the Royal African Society, Vol. 29, No. 115 (April 1930), pp. 280-284.
9. Sir R. C. Slatin: Fire and Sword in the Sudan, 1879-1895; translated by Sir F. R. Wingate, 1896-7.
10. R. S. O'Fahey: State and Society in Dār Fūr, 1980.
11. J. Bruce of Kinnaird: 'Travels to Discover the Source of the Nile in the years 1768, 1769, 1770, 1771, 1172 and 1773', published in 1790.
12. For the full story: P. M. Holt: The Sudan of the Three Niles: The Funj Chronicle, 910-1288/1504-1871, 1999.
13. R. c. Stevenson: The Nuba People of Kordofan Province, 1984, pp. 41-42
14. Yusuf Fadl Hasan: The Arabs and the Sudan, 1973, pp. 136.
15. Ibid. pp. 142.
16. Ibid. pp. 164
17. Ahmad b. Abdallah Al-Qalqashandi: Subh al-A'shafi Sina'at al-Insha', 1913-14, Vol. VIII, pp. 116-118
18. Hasan, pp. 165-6
19. Yusuf Fadl Hasan: The Arabs and the Sudan, 1973, pp. 167.
20. H. A. MacMichael: The Tribes of Northern and Central Kordofan, 1912, pp. 146.
21. J. Owens (ed.): Arabs and Arabic in the Lake Chad Region, 1994 (Sprache und Geschichte in Afrika, Band 14), pp. 81-4.
22. Yusuf Fadl Hasan: The Arabs and the Sudan, 1973, pp. 170.
23. J.W. Sargar: Notes on the history, religion and customs of the Nuba (1922); Sudan Notes and Records 5, pp. 139-40.
24. Ibid. pp.140.

25. Information for the following is mainly drawn from the online encyclopedia 'Wikipedia', the English version, as of January 13, 2007.
26. J. Pallme: *Travels in Kordofan*, 1984 (translation), pp. 17-26, and J. Petherick: *Egypt, Sudan and Central Africa. With Explorations From Khartoum on the White Nile to the Regions of the Equator, Being Sketches from Sixteen Years' Travel*. 1861, pp. 276-281.
27. H. A. MacMichael: *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, 1912, p. 20.
28. R. Mowafi: *Slavery, Slave Trade and Abolition Attempts in Egypt and the Sudan, 1820-1882*, 1981, p. 32.
29. H. Dodwell: *The Founder of Modern Egypt*, 1931, p.50
30. E. Driault: *La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan 1814-1823, Correspondences des Consuls de France en Egypte*, 1827, pp. 225-26
31. R. L. Hill: *Egypt in the Sudan, 1820-1881*, 1958, pp. 12-13. from a letter dated September 23, 1823.
32. *Official Journal of Egypt*, No 19, 15 Muharram, 1246 and No. 388, 3 Muharram, 1248.
33. I. S. Pallme: *Travels in Kordofan*, 1844
34. R. Mowafi: *Slavery, Slave Trade and Abolition Attempts...*, 1981, p. 21.
35. A. T. Holroyd: *Notes on a Journey to Kordofan, in 1836-7*; *Journal of the Royal Geographical Society of London*, Vol. 9. (1839), pp. 163-191.
36. Wikipedia.com as of January 15, 2007.
37. R. Mowafi: *Slavery, Slave Trade and Abolition Attempts in Egypt and the Sudan, 1820-1882*, 1981. This study uses a large number of official documents and travel accounts, but to avoid writing a history to my footnotes, I will not list them. Those interested in the subject of slavery in Sudan now know where to look.
38. *Ibid.*
39. R. Mowafi: *Slavery, Slave Trade and Abolition Attempts...* pp. 72-75.
40. H. A. MacMichael: *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, 1912, pp. 31-32
41. E. Tonioli and R. Hill (ed.): *The Opening of the Nile Basin*, 1974, p. 297.
42. Wikipedia.com as of Januari 15, 2007
43. R. Mowafi: *Slavery, Slave Trade and Abolition Attempts...* p. 90.
44. H. A. MacMichael: *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, 1912, p. 36.
45. M. Mirak-Weissbach: *Why The British Hate Sudan: The Mahdia's War Against London*; *The American Almanac*, September 4, 1995.
46. R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1984, p. 57.
47. Commander Edward Lino in an interview with *Sudan Vision*, February 24, 2004.
48. More information might be found in E. E. Evans-Pritchard: *The Divine Kingship of the Shilluk of the Nilotic Sudan*, 1948 (but I am not sure).
49. R. H. Dekmejian and M. J. Wyszomirski: *Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan*; *Comparative Studies in Society and History*, Vol. 14, No. 2. (Mar., 1972), pp. 193-214.
50. J. A. Reid: *Reminiscences of the Sudan Mahdi, Sheikh Mohammed Ahmed: By His Personal Servant Mohammed el Mekki Ghuleib, Who Is Still Living in the Sudan*; *Journal of the Royal African Society*, Vol. 35, No. 138. (Jan., 1936), pp. 71-75.
51. F.R. Wingate: *Ten Years' Captivity in the Mahdi's Camp, 1882-1892, 1892* (from the manuscripts of Father Joseph Ohrwalder)
52. *Ibid.* p. 95.
53. Quoted by A. Moorhead in 'The White Nile', 1960.
54. G. Sverdrup, Jr.: *A Letter from the Mahdi Muhammad Ahmad to General C. G. Gordon*; *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 31, No. 4 (1911), pp. 368-388.
55. R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1984, p. 59.
56. Information on this chapter from R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1984, pp. 58-61 and H. A. MacMichael: *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, 1912, pp. 43-50.
57. F. Nicoll: *Sword of the Prophet: The Mahdi of Sudan and the Death of General Gordon*, 2004. p.230; quoted from *Abu Salim*, vol.4, pp. 481-2.
58. Quoted by G. Warburg in 'The Sudan Under Wingate: Administration in the Anglo-Egyptian Sudan (1899-1916)', 1971.
59. Wikipedia: *History of Sudan; the East African Protectorate; History of Egypt*, as on January 21, 2007
60. M. O. Beshir: *The Southern Sudan; Background to Conflict*, 1968.
61. R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1984, p. 64.
62. Vicars-Miles, 'Notes on Nuba administration', p. 33, SAD 631/10/1-64.
63. R. C. Stevenson: *Opus. Cit.*, p. 64.
64. A. H. M. Ibrahim: *The Dilemma of British Rule in the Nuba Mountains, 1898-1947*, 1985.
65. H. A. MacMichael: *The Anglo-Egyptian Sudan*, 1934.
66. J. Willis: *Violence, Authority, and the State in the Nuba Mountains of Condominium Sudan*; *The Historical Journal*, 46, 1 (2003), pp. 89-114.
67. *Kordofan province annual report, 1905*, SAD 701/25/164-9.
68. F. C. C. Balfour: Article on 'Faqi 'Ali' (unpublished), 1951; *Sudan Archive*, Durham, 303/8/27
69. J. Willis: *Violence, Authority, and the State in the Nuba Mountains...*
70. L. K. Smith: No. 32, *Operations in the Nyima Hills, Nuba Mountains Province, 1917-1918*; *Sudan Archive*, Durham, 643/13/15
71. S. F. Nadel: *the Nuba, an anthropological study of the Hill Tribes in Kordofan*, 1947, p. 6.
72. R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1984, pp. 62-3.

73. M. O. Beshir: *The Southern Sudan, Background to Conflict*. 1968, pp. 39-41.
74. Sudan Archive, Durham: GS 460. MS. Vicars Miles; 167
75. A. H. M. Ibrahim: *The Dilemma of British Rule in the Nuba Mountains, 1898-1947*, 1985.
76. J. Willis: *Violence, Authority, and the State in the Nuba Mountains...*
77. A. H. M. Ibrahim: *The Dilemma of British Rule...*
78. J. A. Gillan: *Some Aspects of Nuba Administration, 1931*; Khartoum: Sudan Government Memoranda, no. 1., 6-7.
79. *Ibid.* 12.
80. Dilling Archives, Southern Kordofan: *General Administrative Policy-Devolution, a Note by D.C. Dilling*; file SCR/1.A.1/1.
81. K. D. D. Henderson: *The Making of the Modern Sudan*, 1952, pp. 495-6
82. Anderson, L.: *Educational Development and Administrative Control in the Nuba Mountains Region of the Sudan*; *The Journal of African History*, Vol. 4, No. 2. (1963), pp. 233-247.
83. Henderson, K.D.D.: *The Making of the Modern Sudan*, 1952
84. Anderson, L.: *Educational Development and Administrative Control...*
85. *The 1946 Memorandum on Southern Policy*; Beshir, M.O.: *The Southern Sudan, Background to Conflict*. 1968
86. Nadel, S.F.: *The Nuba, an Anthropological Study of the Hill Tribes in Kordofan*, 1947, p. 494.
87. R. C. Stevenson: *The Nuba People of Kordofan Province*, 1965

التاريخ القديم والوسيط والحديث لنوبة الجبال: (قبائل نوبة جبال النوبة بولاية جنوب كردفان)

الجزء الثالث – التاريخ الحديث

7. الاستقلال: 1956م
8. نظام جعفر نميري المايوي
9. الحرب في جبال النوبة (1969م – 2002م)
10. وقف اطلاق النار واتفاقية السلام الشامل (2002م – 2011م)
11. العودة للحرب (2011م – الحرب المستمرة الآن)

7. الاستقلال: 1956م

أدت التنمية غير المتوازنة والفوارق الإقتصادية بين الجنوب والشمال إلى تعويق العمل القومي لنيل الإستقلال. وقد هيمنت الأحزاب الشمالية على العمل السياسي وبذلك نالت نصيب الأسد في المناصب الحكومية بعد الاستقلال. تم تقديم الوعود للجنوبيين للمشاركة في الحكم ولكن تم الإخلال بهذه الوعود. في أغسطس 1955م حدث تمرد في مدينة توريت بواسطة الفرقة الإستوائية (وهي وحدة عسكرية مكونة من الجنوبيين) وأدى التمرد إلى مقتل 261 شمالي و75 جنوبي.

فشل النظام الديمقراطي الأول

تم اعلان الاستقلال في 1 يناير 1956م وتم تجاهل مطالب الجنوبيين بالدولة الفيدرالية. سعت أول حكومة وطنية لتوحيد البلاد من خلال النظام التعليمي. وقامت الحكومة بمصادرة المدارس التابعة للمنظمات التبشيرية العاملة في الجنوب وجبال النوبة وقامت ببناء مدارس جديدة. أثبت النظام الديمقراطي الأول فشله عندما تورطت الأحزاب السياسية الشمالية في المناورات السياسية وصراعات السلطة بشكل كبير لأجل حل مشاكل البلاد. كانت الأحزاب الجنوبية ضعيفة جداً. في عام 1958م استولى الجيش على السلطة: وصار الفريق ابراهيم عبود رئيساً للبلاد (1958م – 1964م). تمثلت سياسة الفريق ابراهيم عبود لتوحيد البلاد في فرض الثقافة العربية في البلاد وقهر المعارضة السياسية. وعندما عارضت المنظمات التبشيرية الحكومة في عام 1962م تم طردها من الجنوب ومن جبال النوبة. تحول النزاع بين الحكومة والمعارضة الجنوبية إلى الحرب الأهلية الأولى¹.

الأنيانيا

هاجر معظم السياسيين الجنوبيين إلى المنافي ودول الجوار وقاموا بتشكيل منظمة الإتحاد الوطني الأفريقي السوداني (سانو) برئاسة جوزيف ادوهو. قام بقايا جنود الفرقة الإستوائية وبعض الجنود ورجال الشرطة السابقين في جنوب السودان بالإنضمام إلى حركة التمرد العنيفة (الأنيانيا) – سم الأفعى، التي كافحت لأجل الانفصال من الشمال. قام الفريق ابراهيم عبود بإرسال معظم قوات الجيش السوداني تقريباً للجنوب ولكنها فشلت في اخماد التمرد. في 21 أكتوبر 1964م قامت ثورة عامة في الشمال ضد نظام الفريق ابراهيم عبود أدت إلى تنحيته من السلطة².

التطورات اللاحقة في جبال النوبة

كان للحرب الأهلية في جنوب السودان تأثير قليل على الحياة في جبال النوبة باستثناء أبناء النوبة الذين التحقوا بالقوات المسلحة لمحاربة الأنيانيا وعدد قليل من أبناء النوبة الذين انضموا للأنيانيا³. كان التأثير الأكثر أهمية هو عملية التعريب المستمرة. شجعت الحكومة الأهالي لتبني الأسماء العربية واستخدام اللغة العربية. تبني الكثيرون من أبناء النوبة التقاليد والعادات العربية بسبب أنهم تصوروا أن عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم متخلفة. في نفس الوقت استمر النشاط التبشيري المسيحي بواسطة رجال

الدين من أبناء النوبة. قام الأب بطرس تية شوكاى، على سبيل المثال، بالتبشير في مناطق الكواليب وهيبان والمورو 4. تم اعلان الاستقلال في 1 يناير 1956م وتم تجاهل مطالب الجنوبيين بالدولة الفيدرالية. كما ظلت الهوية القبلية لدى كل من المسلمين والمسيحيين من أبناء النوبة قوية.

ذكر المؤلف أيه. سي. استفنسن في كتابه "شعب النوبة في ولاية" أنه باقتراب نهايات نظام الفريق عبود: "فإنه بالإضافة للتنوع الموجود في منطقة جبال النوبة ظهرت اختلافات جديدة في النظام التعليمي وبين الأديان. لقد تم استقطاب بعض أبناء النوبة للدين الإسلامي والبعض منهم للدين المسيحي بينما ظل الآخريين مقتنعين في ذلك الحين بممارسة كريمة العادات والتقاليد. في ذلك الوقت صار أبناء النوبة أكثر إدراكاً لهويتهم، أي أكثر إدراكاً لإنتماءهم الجهوي وكانوا حريصين لأخذ نصيبهم في التعليم والتوظيف والتنمية الإقتصادية وصاروا أكثر وعياً بحاجتهم للحصول على صوت يعبر عنهم في الشؤون القومية من خلال انتخاب أعضاء في البرلمان القومي ليضمنوا بأن مصالح أبناء النوبة مسموعة في المركز" 5.

الإتحاد العام لأبناء جبال النوبة

في أكتوبر عام 1964م أندلعت ثورة أكتوبر الشعبية وتم استعادة النظام الديمقراطي للبلاد. في نفس العام قام العديد من مثقفي النوبة بتنظيم أنفسهم وتكوين الإتحاد العام لأبناء جبال النوبة. شارك الإتحاد العام لأبناء جبال النوبة في الانتخابات البرلمانية التي جرت في عام 1965م، وكان أحد أعضاء الإتحاد الأستاذ الراحل يوسف كوة الذى شارك في الانتخابات في حملة السيد عطرون عطية الذى كان أحد كبار السياسيين النوبة في تلك الأيام 6. برئاسة الأب فيليب عباس غبوش دخل الإتحاد العام لأبناء جبال النوبة البرلمان وفاز بثمانية دوائر في جنوب كردفان. كانت الآمال والتوقعات كبيرة ولكن الحكومة الجديدة لم تلبى إلا قليل من التطلعات والتوقعات القومية. لم يتم حل المشاكل في الجنوب وظلت المناطق المهمشة في الشمال: في جبال النوبة والإنقسنا ودارفور والشرق كما هي بدون تنمية اقتصادية. قام الزعماء والقادة المحبطين في هذه المناطق بالعمل المشترك في مختلف المبادرات السياسية، كما بدأوا التفكير في انقلاب عسكري.

8. النوبة خلال فترة نظام جعفر النميري المايوي (1969م – 1985م)

في عام 1969م قام الجيش مجدداً بالاستيلاء على السلطة وأصبح اللواء جعفر محمد النميري رئيساً للبلاد. بعد مساعي أولية لحل مشاكل الجنوب بالقوة لجأ النميري للمفاوضات. في عام 1972م تم توقيع اتفاق اديس أبابا الذى حافظ على وحدة البلاد وتم منح الأقليم الجنوبي الحكم الذاتي باستثناء الشؤون القومية مثل الدفاع والسياسة الخارجية والسياسات النقدية والمالية. ونظراً لأن قبائل النوبة تعيش في الشمال فهي لم تحقق مكتسبات من هذا الإتفاق.

الضغط على الثقافات التقليدية

في الأساس لم يكن الرئيس جعفر النميري مهتماً جداً بتغيير الثقافات السائدة في جبال النوبة وبصفته رجل اشتراكي لم يكن مهتماً بخلق دولة دينية وقد سمح للأطفال من العائلات المسيحية بدراسة التعاليم المسيحية في المدارس. كانت أولويات النميري تتمثل في التنمية والتطوير وفي ضوء ذلك ينبغي ملاحظة ضغط الحكومة على قبائل النوبة لترك أسلوب حياتها التقليدي. في أول الأمر وعلى سبيل المثال تم منع التجار من بيع أي شئ لأي شخص عريان. على أية حال، وفي مرحلة لاحقة من حكم النميري أصبح التوجه الإسلامي بمثابة الحل لمشاكل التنوع الثقافي في البلاد. تم منح بعض طلاب النوبة إعانات لدراسة العلوم الإسلامية والعودة لمجتمعاتهم للدعوة للإسلام. وبالرغم من ذلك لم يتغلغل الدين الإسلامي في معظم مجتمعات النوبة. وظلت المعتقدات المرتبطة بالسحر والملكية والطقوس والشعائر الدينية سائدة

هجرة العمالة

في سبعينيات القرن العشرين أحدثت التنمية الاقتصادية في المنطقة تغيرات كبيرة في مجتمعات النوبة. على سبيل المثال، كانت هناك العديد من الأسباب التي جعلت النوبة يسعون وراء المال والتبادل النقدي: الزواج وتكوين الأسرة وحياسة وامتلاك سلع الرفاهية والملابس العصرية. كانت هناك العديد من فرص العمل: في الجيش والشرطة والمحلات التجارية والمستشفيات والمدارس أو في المشاريع الزراعية الكبيرة التي تم إنشاؤها وقتذاك. هاجر الكثير من أبناء النوبة الأميين إلى مدن الشمال. وقد واجهوا تمييزاً وتفريقاً ولكن الأشخاص الذين قمت بمقابلتهم منفقون على أن الحال أيام حكم الرئيس النميري لم يكن سيئاً. على أية حال، كان رجل النوبة الأمي في العادة يجد وظيفة في أدنى سلم الوظائف أو الوظائف الهامشية.

كان لهجرة العمالة تأثير كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في جبال النوبة. صارت النساء تعمل في المزارع البعيدة لوحدهن. ولم تعد قطعان الماشية الكبيرة العدد منظرًا مألوفًا في القرى حيث لم يعد هناك شباب ليقوموا برعى الماشية. كما أن العديد من الطقوس والشعائر التقليدية لم تعد تقام في الزمان والمكان المحددين. وأصبحت الحياة في القرية أقل جاذبية للفتيات **8** اللاتي بدأن الحلم بالهروب مع رجل كون ثروة في المدينة **9**.

الأرض

تقليدياً تعتبر كل قبيلة في جبال النوبة الأرض التي تقيم فيها أو الأرض التي حولها ملك مشاع للقبيلة، وأي شخص يقوم بفلاحة أي قطعة أرض تصبح قطعة الأرض من أملاكه. أحدث هذا الوضع الكثير من المشاكل في عام 1968م عندما بدأت الحكومة في تشجيع الزراعة الآلية. وبموجب قانون هيئة الزراعة الآلية تم تخصيص 60% من المشاريع الزراعية للأهالي ويجب أن لا يمتلك أي شخص أكثر من مشروع زراعي. في واقع الأمر تم تجاهل هذا القانون. بالنسبة للنوبة فإن تمويل وتأجير مشروع زراعي واحد كان أمراً صعباً مقارنة بإمكانيات الجلابة وقد تملك بعض الجلابة أكثر من عشرين مشروعاً زراعياً. لم تكن لبعض الجلابة خبرات بالزراعة وأدى تراجع خصوبة التربة إلى تراجع العائدات من المشاريع الزراعية وسريعاً ما تم اغتصاب وزراعة الأراضي الزراعية خارج نطاق المشاريع الزراعية المعتمدة.

تدهورت الأمور بالنسبة للنوبة في عام 1970م وبموجب قانون الأراضي غير المسجلة فإن جميع الأراضي التي لم يتم تسجيلها قبل عام 1970م آلت ملكيتها للدولة. قامت الحكومة بسن قوانين عديدة لاجل إخلاء الأراضي الزراعية بغرض تحويلها لمشاريع زراعية. لم يكن هناك اعتراف بحقوق النوبة الذين رغم عدم تملكهم لصكوك ملكية قانونية كانوا يزرعون الأرض لعدة أجيال. كانت الأنظمة والقوانين معقدة وليست في صالح النوبة **10**.

جذبت المشاريع الزراعية العديد من عرب السودان: جلابة وبقارة اللذين بدأوا في الاستيطان قرب الجبال. بحلول عام 1974م لاحظت ليني رايفنشتال أن تعرض النوبة للثقافة العربية والإقتصاد النقدي أدى إلى تغيير أصحابها "النوبة" (قبيلة المساكين القصار) بشكل كبير. كانت ليني رايفنشتال تركز بشكل كبير على السلوك المتغير تجاه التعري نظراً لأن الإسلام والمسيحية لم يتغلغلا في ذلك الوقت بشكل كبير في معظم مجتمعات النوبة **11**. ظلت الأعراف والتقاليد مستمرة وتشكل جزءاً كبيراً من حياة مجتمعات النوبة وحتى في مجتمعات النوبة التي تأثرت بشكل كبير بالثقافة العربية، مثل قبيلة الميري، فإنهم استمروا محافظين على هويتهم القبلية واستمروا في ممارسة العديد من تقاليدهم وأعرافهم **12**.

السياسة النوبية

بينما سادت روح التفاؤل معظم أنحاء السودان بعد توقيع اتفاق أديس أبابا في عام 1972م فإن الجهات التي من المفترض أن تقوم بحماية مصالح النوبة فشلت في تحقيق القليل لهم بالنظر لرفع مستوى المعيشة في جنوب كردفان. بعد وقت وجيز عقب انتخابات عام 1965م انقسم اتحاد عام جبال النوبة إلى جناحين. وتم قيادة أحد الجناحين بواسطة الأب فيليب عباس غبوش الذي كان يدعو إلى التمسك بهوية النوبة والتعاون مع العناصر الأفريقية الأخرى وترأس الجناح الآخر محمود حسيب الذي كان يرغب في التعاون مع البقارة والجلابة الموجودين في جنوب كردفان **13**. في عام 1969م تم إجبار الأب فيليب عباس غبوش لمغادرة البلاد. لقد تم الحكم عليه بالإعدام حتي الموت بإدعاء تورطه في محاولة انقلاب تم التخطيط لها بأن تتم قبل أيام من قيام النميري بالاستيلاء على السلطة **14**. تحالف الجناح الذي كان يقوده محمود حسيب مع نظام الرئيس النميري. في عام 1977م طالب محمود حسيب بصفته حاكم كردفان جهرة بمزيد من صلاحيات الحكم الذاتي الإقليمي وتم اسكاته بواسطة الرئيس النميري. في ذلك الوقت، فقد العديد من أبناء النوبة الثقة بقادتهم وزعماءهم السياسيين **15**. في نفس العام شارك الأب فيليب عباس غبوش في محاولة انقلابية أخرى وهذه المرة من جوبا بالتعاون مع آخرين من بينهم السيد محمد هارون كافي والسيد يونس دومي كالمو **16**.

تنظيم كومولو

في عام 1972م، قام الطلاب من أبناء النوبة في مدرسة تلو بمدينة كادوقلي بتكوين رابطة أبناء جبال النوبة، وهي تنظيم سياسي سري كرد فعل لمحاولة الإتجاه الإسلامي المرتبط بالراحل الدكتور حسن الترابي للهيمنة على الكيانات الطلابية في مدرسة تلو. كان أول رئيس للرابطة كامل كوة مكي الأخ الأصغر للراحل يوسف كوة. شملت عضوية الرابطة عبد العزيز الحلو ودانيال كودي. في عام 1976م، تم قبول العديد من أعضاء رابطة أبناء جبال النوبة في جامعة الخرطوم حيث التقوا بالعديد من الطلاب من أبناء النوبة الناشطين سياسياً وقاموا بتكوين حركة شباب كومولو في عام 1977م وأصبح الراحل يوسف كوة زعيم هذا التنظيم السري الذي ركز على هوية النوبة **17**.

بالعمل السري أصبح لتنظيم كومولو تأثير قوي على مستقبل النوبة. وكان من أشهر أعضاء تنظيم كومولو عبد العزيز الحلو ودانيال كودي واسماعيل خميس جلاب ونيرون فيليب. في عام 1980م تحصل الراحل يوسف كوة على وظيفة في مدرسة تلو الثانوية العليا وبدأ في استقطاب الطلاب والمدرسين من أبناء النوبة. في عام 1981 شكل تنظيم كومولو الأساس للحملة الإنتخابية الناجحة للراحل يوسف كوة في انتخابات المجلس الإقليمي في كردفان وأصبح يوسف كوة نائباً لرئيس المجلس. لم يعالج المجلس المكون من أغلبية النوب العرب أي من القضايا والمسائل المهمة للنوبة مثل التعليم والتنمية الاقتصادية في جبال النوبة **18**. في نفس العام تم انتخاب السيد دانيال كودي في مجلس الشعب القومي. كان الإتحاد الاشتراكي الذي يتزعمه الرئيس نميري هو الحزب المهيمن على المجلس وكانت الديمقراطية في الإتحاد الاشتراكي مسرحية مبتذلة **19**.

الأنيانيا – 2

في نهايات السبعينيات من القرن العشرين أسس الأب فيليب عباس غبوش حزب جديد للنوبة: "الحزب القومي السوداني". شارك الحزب القومي السوداني في تحالفات عديدة مع الأحزاب الجنوبية والأحزاب التي تمثل المهمشين في الشمال مثل الفور والبجا. خلف الكواليس كان الأب فيليب عباس غبوش يتصل بحركة التمرد الجديدة في جنوب السودان المعروفة بشكل عام باسم الأنيانيا – 2. قام الأب فيليب باستقطاب أبناء النوبة للكفاح المسلح وأرسلهم إلى أثيوبيا حيث تلقى المتمردين تدريباً عسكرياً من الحكومة الأثيوبية **20**. (كانت الحكومة الأثيوبية تدعم الجنوبيين المتمردين ضد الحكومة السودانية لأن الحكومة السودانية كانت تدعم الأريتريين). ساعد دانيال كودي أعضاء تنظيم كومولو للسفر لمعسكرات المتمردين في أثيوبيا. في عام 1982م قام أبناء النوبة المستقطبين بواسطة الأنيانيا – 2 بنقل مسرح

عمليات الأنيانيا - 2 إلى جبال النوبة حيث تم تدريب المزيد من أبناء النوبة وكانت العمليات في عام 1983م مقتصرة على مهاجمة مراكز الشرطة 21.

البقارة

خلال العقود الأولى بعد الإستقلال تحسنت العلاقات بين النوبة والبقارة بشكل كبير في معظم مناطق جبال النوبة. كان البقارة يأخذون ويتولون رعي ماشية النوبة في رحلتهم للشمال وعندما يعودون لجنوب كردفان كان صبيان النوبة يتولون حراسة ماشية البقارة. استوطن عدد كبير من البقارة بشكل دائم في جنوب كردفان لممارسة الزراعة. سياسياً يرتبط البقارة بشكل كبير بحزب الأمة الذى يتولى قيادته أحفاد الإمام المهدي. تعاون بعض البقارة مع الإتحاد العام لجبال النوبة في انتخابات 1965م لكن أبناء النوبة قاموا بالتركيز كثيراً على هويتهم الأفريقية أكثر من هويتهم الإقليمية.

استحدثت الزراعة الآلية في عام 1968م أثر على حياة البقارة الذين كانوا يقومون برعي قطعان ماشيتهم في جبال النوبة. لقد وجد البقارة أنفسهم محصورين ومقيدين من الوصول للمراعي والآبار. وأخيراً حدث الأمر الذى لا مفر منه حيث بدأ البقارة برعي قطعان ماشيتهم في أراضى النوبة مما أدى إلى تدمير المحاصيل والمزروعات والإعتداء على الآبار. خلال السبعينيات من القرن الماضي حدث جفاف شديد في شمال كردفان مما أجبر البقارة للتوجه جنوباً والبقاء طويلاً. وهذا زاد التوترات بين النوبة والبقارة فيما يتصل باستخدامات الأرض والآبار 22. عقب عام 1975م بدأ الاقتصاد السوداني في الإنهيار وازداد التضخم ولجأت الحكومة إلى تقنين توزيع الوقود والسلع الإستهلاكية. كان توزيع السلع يتم بناء على نظام المناطق الجغرافية الذى يعتمد بشكل كبير على الحدود العرقية (القبليّة). ونتيجة لذلك زاد التنافس على الموارد وزادت التوترات بين النوبة والبقارة 23.

الجيش الشعبي لتحرير السودان

بطلون عام 1983م تدهورت حالة الإقتصاد السوداني، وخرج المواطنون على نطاق البلاد في مظاهرات محتجين على الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية السيئة. وفي نفس الوقت دخل للسودان مئات الآلاف من اللاجئين من أثيوبيا وأريتيريا للسودان. واجهت خطط النميري لإعادة التقسيم الإداري للإقليم الجنوبي ثورة مسلحة في الجنوب. تم إشعال تمرد كتائب الجيش السوداني الثلاثة في بور وأيود بواسطة الضباط الجنوبيين في الجيش القومي الذين كانوا يخططون للتمرد منذ عدة سنوات. كان العقيد جون قرنق دي مابور جزءاً من هذه المخطط. قام جون قرنق بالإنضمام للكتائب المتمردة وتوجه بهم إلى أثيوبيا حيث انضموا إلى قوات الأنيانيا 2- 24.

بدعم من الرئيس الأثيوبي مانجستو هايلا مريام قام العقيد جون قرنق بتوحيد الكتائب المتمردة مع بعض قوات الأنيانيا 2- فيما يعرف بالجيش الشعبي لتحرير السودان وأصبح قرنق القائد العام للقوات المشتركة. في يونيو من نفس العام تم تكوين الجناح السياسي للجيش الشعبي لتحرير السودان: "الحركة الشعبية لتحرير السودان"، وتم اصدار البيان التأسيسي (المانيفستو) الذى دعا إلى تأسيس دولة علمانية وسودان موحد حيث يعامل جميع المواطنين على قدم المساواة. في سبتمبر 1983م، وفي محاولة يائسة للبقاء في السلطة قام النميري بفرض قوانين الشريعة الإسلامية، ونتيجة لذلك قام كثير من الجنوبيين بالإنضمام للحركة الشعبية لتحرير السودان.

النوبة والجيش الشعبي لتحرير السودان

وصلنا الآن للحظة حاسمة في تاريخ النوبة عندما قامت مجموعة من قادة وزعماء النوبة المحبطين من عدم التطور السياسي بالإنضمام للجيش الشعبي لتحرير السودان في كفاح مسلح ضد حكومة السودان. لم يتم نشر جميع تفاصيل هذا الأمر للجماهير والرأى العام ولكن بعض الأشخاص المرتبطين به قدموا إفاداتهم مما سهل رسم بعض الخطوط العريضة. من المحتمل أن الأب فيليب عباس غبوش كان أول

حلقة اتصال بين النوبة والجنوبيين. لقد ظل الأب فيليب عباس غبوش على اتصال وثيق مع تمرد الجنوبيين منذ ظهور الأنيانيا. قام الأب فيليب عباس غبوش من وراء الكواليس باستقطاب أبناء النوبة وقام بإرسالهم لمعسكرات الأنيانيا -2 في أثيوبيا 25.

كان السيد دانيال كودي حلقة اتصال أخرى مع الجنوبيين وبصفته نائب في مجلس الشعب القومي بعد انتخابات 1981م قام السيد دانيال كودي بإجراء اتصالات مع الحركات الجنوبية. وبالرغم من أن السيد دانيال كودي كان عضواً في تنظيم كومولو فإنه لم يتصرف بصفته ممثلاً للتنظيم عند قيامه بهذه الاتصالات. بنفس طريقة الأب فيليب عباس غبوش بدأ السيد دانيال كودي بإرسال أبناء النوبة إلى معسكرات الأنيانيا - 2. كما قام بإجراء اتصالات مع الحركة التي أصبحت في المستقبل الجيش الشعبي لتحرير السودان. عندما حدث التمرد في بور كان السيد دانيال كودي بالفعل يعلم بالمخطط من خلال الدكتور لام أكول وإدوارد لينو. كان الدكتور لام أكول محاضراً في كلية الهندسة بجامعة الخرطوم قبل أن ينخرط رسمياً في السياسة. في نفس الوقت كان الدكتور لام أكول منذ البداية حلقة اتصال مع الحركة الشعبية لتحرير السودان - حتى قبل تأسيس الحركة. كان السيد إدوارد لينو عضواً في نفس خلية الخرطوم السرية ويقوم باستقطاب المثقفين للانضمام للحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان. بالاشتراك مع السيد بيتر نيوت. أصبحت هذه الخلية المكتب المركزي للحركة الشعبية بعد مغادرة العقيد جون قرنق إلى أثيوبيا. في عام 1981م كان كامل كوة يعمل في ليبيا حيث قام بالانضمام لمجموعة صغيرة من الجنوبيين. قامت هذه المجموعة بتأسيس مكتب في طرابلس وأصبحت فعالة في إستقطاب الدعم العسكري من العقيد معمر القذافي للجيش الشعبي لتحرير السودان.

قام العقيد جون قرنق في عام 1983م بإرسال مانيفستو (البيان التأسيسي) الحركة الشعبية لتحرير السودان للسيد دانيال كودي الذي يظهر أنه بدأ المناقشات فيما يتعلق بكيفية انضمام أعضاء تنظيم كومولو للحركة الشعبية لتحرير السودان: هل سيكون الانضمام بشكل جماعي أم على مستوى الأفراد؟ سافر إدوارد لينو لمدينة كادوقلي لمقابلة يوسف كوة ورجعا للخرطوم سويا. في منزل الأب فيليب عباس غبوش التقى الراحل يوسف كوة بالدكتور لام أكول والسيد دانيال كودي والسيد عبد العزيز آدم الحلو وقاموا بمناقشة البيان التأسيسي للحركة الشعبية والآثار المترتبة على الانضمام للكفاح المسلح. قرر المجتمعون إن الانضمام للحركة الشعبية لتحرير السودان قد يعزز موقف النوبة في صراعهم مع حكومة السودان والأكثر أهمية من ذلك فإن أعضاء تنظيم الكومولو لم يكونوا مقتنعين بأن التمرد المنعزل في جبال النوبة يمكن أن يدوم طويلاً. لقد كانوا يعتبرون أن الحركة الشعبية وسيلة فعالة لجذب الرأي العام العالمي لقضيتهم وفي نفس الوقت كانت رؤية السودان الجديد، التي طرحها الدكتور جون قرنق والمتمثلة في دولة موحدة بمساواة الجميع، جاذبة لهم. في نهاية الأمر قرر هؤلاء القادة بأن يقوم الراحل يوسف كوة بالسفر إلى اثيوبيا لمناقشة المسألة بشكل تفصيلي مع الدكتور جون قرنق. قام الدكتور لام أكول بمرافقة الراحل يوسف كوة في سيارته حتى المطار 26.

قابل الراحل يوسف كوة العقيد جون قرنق وإنضم للحركة الشعبية في عام 1984م وأعلن قراره بالانضمام للحركة من إذاعة الحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان التي كان يتم بثها من اثيوبيا حيث قام بمناشدة جميع أبناء النوبة للانضمام للكفاح المسلح من أجل الحرية. بعد فترة وجيزة تبع يوسف كوة بالسفر إلى أثيوبيا كل من تلفون كوكو ويونس أبو صدر ويوسف كرا وعوض الكريم. لم يكن جميع أبناء النوبة سعيدين بتصرف الراحل يوسف كوة. شعر بعض أعضاء تنظيم كومولو بأن يوسف كوة تصرف بعكس اتفاقهم معه حيث طلبوا منه الرجوع إليهم ليقرروا في المسألة. ويبدو أنهم صدموا كذلك بالأمر الواقع: حيث أن اعلان يوسف كوة جعل كل أبناء النوبة في دائرة الاتهام بالانضمام للتمرد. كان أول تكليف للراحل يوسف كوة هو أن يقوم برئاسة مكتب الجيش الشعبي لتحرير السودان في اليمن. كانت مهمة المكتب شبيهة بمهمة مكتب الحركة في طرابلس - ليبيا. نظراً لأن النوبة يعيشون في شمال السودان فقد قام العقيد جون قرنق بوضع يوسف كوة في الصفوف الأولى للحركة كدليل على أن الحركة الشعبية لتحرير السودان ليست مجرد حركة لأبناء الدينكا أو الجنوبيين. وبدأ قرنق يخاطب الجنوبيين

لأجل اقتناعهم بأن الجيش الشعبي لتحرير السودان يحارب من أجل تحرير كل السودانين وتجاوب معه البعض. وأصبح الأستاذ السابق (يوسف كوة) عضواً مناضراً في القيادة العليا للجيش الشعبي لتحرير السودان **27**.

محاولات انقلابية

شارك أعضاء تنظيم كومولو في العديد من المحاولات الانقلابية. في عام 1983م كانت هناك محاولة انقلابية اشترك فيها اسماعيل خميس جلاب ومدير كابيتولك ويونس أبو صدر. وفي عام 1984م كانت هناك محاولة انقلابية أخرى شارك فيها الأب فيليب عباس غبوش والسيد دانيال كودي. في كلتا المحاولتين الانقلابيتين تم اكتشاف مخطط الانقلاب وتم اعتقال المشاركين فيها لفترات قصيرة. سافر دانيال كودي، بعد اطلاق سراحه، إلى أثيوبيا وتم تعيينه في مكتب الحركة الشعبية لتحرير السودان في أديس أبابا **28**.

9. الحرب في جبال النوبة (1985م – 2002م)

في عام 1985م تمت الإطاحة بالرئيس جعفر نميري بانتفاضة شعبية ترأس مجلسها العسكري الفريق سوار الذهب وتم الإعلان عن عودة النظام الديمقراطي بعد فترة انتقالية مدتها عام. عقب الانتخابات البرلمانية في عام 1986م قام السيد الصادق المهدي بتشكيل العديد من الحكومات الائتلافية التي لم تستطع حل مشاكل البلاد.

في الخرطوم

خلال الفترة الإنتقالية قام الأب فيليب عباس غبوش بمحاولة انقلابية أخرى بالاشتراك مع اسماعيل خميس جلاب ومدير كابيتولك ويونس أبو صدر وفشلت المحاولة الانقلابية. بعد فترة اعتقال قصيرة غادر اسماعيل خميس جلاب ومدير كابيتولك ويوسف أبو صدر السودان للانضمام للجيش الشعبي لتحرير السودان. شارك الأب فيليب عباس غبوش والحزب القومي السوداني في الانتخابات البرلمانية وفاز بثمانية دوائر برلمانية بما في ذلك دائرة الحاج يوسف في الخرطوم بحري **29**. تعاون الحزب القومي السوداني مع المعارضة الجنوبية في اتحاد الأحزاب الأفريقية. لم يتفق الساسة النوبة المنضويين لمختلف الأحزاب السياسية السودانية على سياسة موحدة تقرر مصير النوبة. ويتذكر البروفيسور هنود أيبا كدوف قائلاً: "إن كل منهم كانت له أهدافه السياسية السرية. أنا أعرف سلفاً أن جميع هذه الأحزاب مخترفة من أعضاء تنظيمات نوبة سرية مثل "كومولو" و "نحن كادوقلي" وبعض من شباب النوبة كان من الغرابة يمكن بانتمائهم للأحزاب العربية الاشتراكية. وثبت لاحقاً أن بعضاً من هؤلاء المثقفين من شباب النوبة كانت تقوده عقائده السياسية الذاتية أكثر من مصالح النوبة السياسية العامة" **30**.

قوات المراحل

كان عرب المسيرية البقارة في كردفان يشترتون السلاح منذ عام 1983م وكانوا يهاجمون مجتمعات الدينكا في كردفان وأبيي بحصانة تامة، ولكن بحلول عام 1985م كانت قوات المهام الخاصة بالجيش الشعبي لتحرير السودان ناشطة في بحر الغزال. قامت إحدى هذه القوات بمطاردة مجموعة من مهاجمي المسيرية حتى القرود التي تقع في الأطراف الجنوبية لجبال النوبة وقتلت 60 فرداً من البقارة. في ذلك الوقت بدأ وزير الدفاع اللواء فضل الله برمّة ناصر وهو من قبيلة المسيرية الزرق بتسليح البقارة وحولهم إلى مليشيات عرفت بـ "قوات المراحل". قامت قوات المراحل باستخدام أسلحتها لأرهاب النوبة. أصبحت السرقة والهجمات العنيفة ممارسة شائعة في الجبال الغربية. لذلك عندما دخلت مجموعة صغيرة من القوات الخاصة التابعة للجيش الشعبي لتحرير السودان الجبال في عام 1986م لتجنيد الشباب كان العديد من أبناء النوبة متحمسين للانضمام للجيش الشعبي **31**.

كتيبة البركان

بدلاً من السعي لإنهاء العنف في جنوب كردفان قامت حكومة السيد الصادق المهدي بتسليح وتنظيم الحوازمة كذلك. وبدأ الجيش يشارك في القتال. ببداية شهر يناير 1986م بدأ الجيش يهاجم المواطنين والقرى المشتبه في تعاطفها مع الجيش الشعبي لتحرير السودان. تمت أول اشتباكات مباشرة مع الجيش الشعبي لتحرير السودان في يونيو 1987م عندما قامت كتيبة البركان التي كان يقودها الراحل يوسف كوة بدخول جبال النوبة. أدى هذا الهجوم إلى مزيد من العنف من قوات المراحل والجيش الحكومي.

كتيبة كوش الجديدة

قام كل من اللواء عبد العزيز الحلو والراحل يوسف كوة بتجنيد مجموعات كبيرة من أبناء النوبة وقاما بإرسالهم إلى معسكرات تدريب الجيش الشعبي لتحرير السودان في أثيوبيا. سارت المجموعات الأولى بالأقدام لمدة ثلاثة شهور للوصول إلى هناك. خلال عام 1988م استهدف الجيش الحكومي القرى التي عرفت بإرسالها مجندين للجيش الشعبي لتحرير السودان. رجع المجندون في عام 1989م ضمن كتيبة كوش الجديدة. دخل الجيش الشعبي لتحرير السودان من ناحية الجنوب ومن ثم قام بالإتجاه ناحية مدينة كادوقلي وهي أكبر مدينة رئيسية في جنوب كردفان. تموضع الجيش الشعبي في جزء كبير من جبال النوبة واستقر فيها. قامت الحكومة بشن العديد من الحملات ضد القرى التي احتضنت الجيش الشعبي لتحرير السودان.

لم يكن جنود كتيبة كوش الجديدة ملائكة حيث قام البعض منهم بالاعتداء على المواطنين النوبة وكان يتم محاكمة المخالفين لقوانين الجيش الشعبي وتنفيذ الإعدام عليهم وفي الغالب يتم إعدام جنود الجيش الحكومي المأسورين **32**. وتم استهداف المدنيين من عرب البقارة. في منطقة المورو قتل الجيش الشعبي لتحرير السودان العديد من الجلابة وكان البعض منهم متزوجاً من نساء المورو. قام الجيش الشعبي لتحرير السودان كذلك بمهاجمة المشاريع الزراعية وقام بمهاجمة وقتل الجلابة. كما قام الجيش الشعبي لتحرير السودان بمهاجمة قرى الحوازمة وأجبر المواطنين المدنيين على النزوح للمدن سعياً للسلامة **33**.

العنف والعزلة والمجاعة

في 30 يونيو 1989م استولى العقيد عمر حسن البشير على السلطة في الخرطوم ووافق على وقف إطلاق نار مع الجنوبيين وسمح للأمم المتحدة بإيصال الإغاثة للمواطنين المقيمين في المناطق التي يسيطر عليها الجيش الشعبي لتحرير السودان (عملية شريان الحياة - السودان). على أية حال، تم استبعاد جبال النوبة من هذه الترتيبات **34**. قام الرئيس البشير بتقنين قوات المراحل وجعلها تحت سلطة الحكومة بصفتها قوات الدفاع الشعبي. تصاعد القتال طوال فترة الحرب واستمر الجيش الحكومي وقوات الدفاع الشعبي في حرق القرى وتدمير المحاصيل وقتل المواطنين، كما استهدفا بشكل خاص المتعلمين من أبناء النوبة وتم إعدام بعض أعضاء تنظيم كومولو واختفي اقارب القادة المعروفين بانتماءهم للجيش الشعبي لتحرير السودان **35**.

تم اغلاق المدارس ولم تعد الرعاية الصحية متوفرة وتم هجر المزارع. تسبب الجفاف والعنف في احداث مجاعة أليمة في الفترة من 1990م وحتى 1993م ومات مئات الآلاف من المواطنين بسبب المجاعة. صار النوبة في المناطق التي يسيطر عليها الجيش الشعبي لتحرير السودان منعزلين بشكل كبير من العالم الخارجي **36**. ومع ذلك وجد بعض الأفراد الفرصة للسفر للخرطوم **37**. وتوقفت التجارة ونتيجة لذلك تفاقمت المجاعة بشكل كبير.

تم ترحيل المواطنين من قراهم إلى ما يعرف بمعسكرات السلام حيث تم الإحتفاظ بالعديد منهم ضد رغباتهم وذهب آخرون طوعاً وباختيارهم لمعسكرات السلام بأمل الحصول على بعض الأغذية والملابس والعلاج أو التعليم لأبناءهم. كان المواطنين الذين يعودون من المناطق التي تسيطر عليها الحكومة يعاملون بشك وريبة من قبل الجيش الشعبي لتحرير السودان.

المناطق تحت سيطرة الحكومة

عانى كذلك المواطنين المدنيين الذين كانوا في المناطق التي كانت تحت سيطرة الحكومة، و نزح الكثير من المواطنين إلى المدن الكبيرة في جنوب كردفان مثل كادوقلي والدلنج أو إلى الأبيض أو أم د رمان أو الخرطوم. كان انتاج الذرة متدنياً وأثر الجفاف في بدايات تسعينيات القرن الماضي على كل المواطنين. على وجه العموم، كان النوبة الذين كانوا في المناطق التي تحت سيطرة الحكومة أحسن حالاً من أولئك النوبة الذين كانوا في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان **38**. كانت خدمات الرعاية الصحية وخدمات التعليم رغم أنها متدنية المستوى إلا إنها كانت متوفرة. كانت المدن التي تحتضن حاميات الجيش الحكومي ومعسكرات السلام تتلقى الإغاثة من الأمم المتحدة التي لم يسمح بإيصالها إلى المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان. كان المواطنون يحصلون على بعض السلع الأساسية. كان مستوى عدم الأمان متدنياً نوعاً ما في المناطق التي تحت سيطرة الحكومة مقارنة بالمناطق التي كانت تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان. كان جنود الجيش الشعبي لتحرير السودان يشنون في بعض الأحيان حملات لمصادرة الماشية من قرى الأعداء القريبة. ولكن بعد عام 1983م ونظراً لعدم وجود التموينات قام الجيش الشعبي لتحرير السودان بشن حملة كبيرة المستوى في عام 1998م **39**. بالمقابل كان الجيش الحكومي يقوم بشن حملات كبيرة ضد الجيش الشعبي في مواسم الصيف.

البقارة بين عدوين

منذ بداية الحرب في جبال النوبة كان تجار البقارة يهربون الناس والسلع من المناطق التي تحت سيطرة الحكومة إلى المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان وكانوا يقومون برشوة ضباط الجيش الحكومي **40**. بالرغم من أن البقارة كانوا متخوفين من قيام الجيش الشعبي لتحرير السودان بطردهم من جنوب كردفان إلا أنهم كانوا مسرورين بقتال الجيش الشعبي إلى جانب قوات الدفاع الشعبي ولكنهم بعد فترة وجيزة وجدوا أن هذا الوضع لن يحسن موقفهم بشكل كبير. في عام 1993م أدرك المسيرية بأنهم كانوا ضحية للحرب مثل النوبة وقاموا بإبرام "اتفاق برام" مع النوبة. في مقابل الذرة والماشية كان تجار البقارة يهربون الملح والملابس والأدوية. استمر هذا الحال حتي نهاية عام 1993م عندما حررت القوات الحكومية مدينة برام. في عام 1995م تم توقيع "اتفاق رجيفي" بعد فترة وجيزة من الإتفاق السابق. في عام 1996م قام النوبة بإبرام "اتفاق كيان" مع قبيلة الرواوة الذين كانوا يهربون كذلك التموينات للجيش الشعبي لتحرير السودان **41**.

النوبة ضد النوبة

الإحساس المتنامي بهوية نوباوية مشتركة لم يكن يعني تلقائياً الهدف المشترك. لدى شعب النوبة تجارب مختلفة اكتسبها بمرور الزمن: مستويات مختلفة من التعليم ومستويات مختلفة من التنمية الاقتصادية ومستويات مختلفة من أثر التعريب. الخ الأمر الذي أعطاهم رؤي ومفاهيم مختلفة للحياة. هذا الأمر ظهر في وضع جبال النوبة خلال الحرب. تتكون القوات المسلحة في السودان من أعداد كبيرة من الجنود من أبناء النوبة. هل هم أناس فقراء مغسولى الأدمغة يبحثون عن الثروة كما كان يدعي ضباط الجيش الشعبي لتحرير السودان؟ أو كما يدعي الساسة والقادة والمسؤولين من أبناء النوبة الذين يعملون مع أو لصالح حزب المؤتمر الوطني خلال فترة الحرب. يمكن الزعم بأن هؤلاء القادة من أبناء النوبة

فاسدون وانتهزيون يحطون من قدر ومصداقية أبناء النوبة الذين ماتوا وأخرست أصواتهم وتم مطاردتهم بسبب دفاعهم عن قضيتهم **42**. ربما يكون للبعض أفكاراً مختلفة بخصوص وضعهم ومكانتهم في السودان بخلاف النوبة الذين انضموا للجيش الشعبي لتحرير السودان! ليس بالضرورة أن يخضع الصراع للانتماء القبلي. يمكن أن يكون نفس أفراد الأسرة الواحدة مختلفين في الرأي بحيث يحارب الأخ أخاه ويحارب الأب ابنه.

يوسف كوة

بعد فترة وجيزة من احتلال بل قل تحرير مناطق كبيرة من جبال النوبة بدأ الراحل يوسف كوة بتأسيس إدارة مدنية من مستوى القرية فصاعداً لكامل الإقليم تحت إشرافه و قيادته. على أية حال، في عام 1991م قام عضوان من أعضاء القيادة العليا للجيش الشعبي لتحرير السودان وهما الدكتور ريك مشار تيني درغون والدكتور لام أكول أجوين بمحاولة للإطاحة بالدكتور جون قرنق من قيادة الجيش الشعبي. وفشلت المحاولة الانقلابية وأنفصل كل من الدكتور ريك مشار والدكتور لام أكول من الجيش الشعبي وقاما بتكوين فصيل (جناح) الناصر. فجأة صارت قوات الجيش الشعبي لتحرير السودان الموجودة في جبال النوبة معزولة من الجنوب. لم تعد التموينات تصل بعد ذلك لجبال النوبة وواجه يوسف كوة تمرداً بين ضباطه **43**.

بالأخذ في الاعتبار الوضع الميئوس منه قرر يوسف كوة استشارة النوبة. في عام 1992م دعا يوسف كوة ممثلين لجميع شرائح أبناء النوبة وسألهم عما إذا كانوا يريدون الإستسلام أو الإستمرار في الحرب. صوت المجلس الإستشاري لصالح الحرب. صار المجلس الإستشاري كيان دائم يناقش العديد من القضايا الإجتماعية والتطورات السياسية ويقدم توصياته للمجلس التشريعي الذي يقوم بتحويلها لموجهات للإدارة المدنية **44**.

سيطر الجيش الشعبي لتحرير السودان على أجزاء كبيرة من جبال النوبة. ورغم ذلك لم يتوقف العنف وكانت الأطراف (الجيش الحكومي والجيش الشعبي) تحارب بعضها البعض باستمرار. تغير هذا الوضع بعد عام 1998م عندما أصيب الراحل يوسف كوة بالسرطان. أبعاد العلاج يوسف كوة من المنطقة لفترات طويلة وجعله يترك القيادة لنوابه الذين لم يكونوا في مستوى المهام القيادية لتأمين المنطقة. لم يتمتع نواب يوسف كوة بالمهارات السياسية والقدرات والجاذبية الشخصية للراحل يوسف كوة. في نفس الوقت انقطع الدعم والإمدادات من قيادة الجيش الشعبي لتحرير السودان في الجنوب وصار الوضع سيئاً. سيطر الجيش الحكومي على مناطق كبيرة في جبال النوبة وزاد عدد النازحين محلياً بشكل كبير **45**.

الإغاثة والضغط الدولي

كان الراحل يوسف كوة والعديد من قادة وزعماء النوبة المشهورين يقومون باستمرار بالسفر للخارج لزيادة الوعي لدى الرأي العام العالمي فيما يتصل بالحرب في جبال النوبة. قام هؤلاء القادة والزعماء بمقابلة نواب برلمانيين وناشطين في مجال حقوق الإنسان ومنظمات إغاثة وصحفيين وغيرهم. قام الدكتور سليمان موسى رحال، المؤسس المشارك لمنظمة "تضامن جبال النوبة في الخارج"، بجهود حثيثة لمناشدة الحكومات الغربية للعمل ضد حملات استئصال النوبة **46**. واستطاع السيد نيرون فيليب، رئيس منظمة "إغاثة وإعادة إعمار وتطوير النوبة"، إقناع العديد من المنظمات الخيرية غير الحكومية بأن الوضع الإنساني في جبال النوبة خطير جداً ويقتضى تجاهل الحظر الجوي ومساعدة وإغاثة المواطنين في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان في جبال النوبة **47**.

في عام 1999م، قام فريق تقييم تابع للأمم المتحدة بالتحري عن احتياجات المواطنين من أبناء النوبة في كل من المناطق التي تحت سيطرة الحكومة والتي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان **48**. بالرغم من الضغوط المتزايدة على حكومة السودان لم يتم السماح بإيصال الإغاثة بالجو حتى نوفمبر

2001م 49. في أوائل ذلك العام التزمت الولايات المتحدة الأمريكية بمواصلة جهودها المتوقع أن تكون نهائية لاستعادة وتحقيق السلام في السودان. اعتبر السيد جون دانفورت، المبعوث الخاص للرئيس الأمريكي، أن وقف إطلاق النار في جبال النوبة أمر مهم لخطة في بناء الثقة بين الحكومة والجيش الشعبي لتحرير السودان. لم يعيش الراحل يوسف كوة ليرى هذه التطورات: لقد مات في 31 مارس 2001م.

10. وقف إطلاق النار واتفاقية السلام الشامل (2002م – 2011م)

1 - اتفاق وقف إطلاق النار في جبال النوبة

في يناير 2002م وافقت الحكومة السودانية والجيش الشعبي لتحرير السودان/جبال النوبة على وقف إطلاق نار تحت مراقبة دولية وأصبح وقف إطلاق النار سارياً من 21 يناير 2002م 50. كان يمثل الجيش الشعبي لتحرير السودان في اتفاق وقف إطلاق النار كل من عبد العزيز الحلو ودانيال كودي ونبيرون فيليب واثنين من الجنوبيين بينما كان يمثل الحكومة كل من مطرف صديق وعلى النميري اللذان ترأسا وفد الحكومة. تم وقف وتجميد الأعمال العدائية: وتم رفع الحظر عن رحلات الإغاثة الجوية، وتم السماح للمواطنين في المناطق تحت سيطرة الطرفين التنقل بحرية على نطاق كافة أرجاء جبال النوبة. بدأت المنظمات غير الحكومية في إزالة الألغام وحفر الآبار وتقديم المساعدات والخدمات الطبية وغيرها. تم مباشرة العديد من المشاريع الزراعية ومشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية لأجل تغطية الأضرار الكبيرة التي تكبدها المواطنون أثناء فترة الحرب. لم يكن التطور سريعاً كما توقع المواطنون ولكن بالمقارنة بفترة الحرب تحسنت الأوضاع الحياتية في جبال النوبة بشكل كبير.

النازحين محلياً

بلغ عدد النازحين النوبة المتواجدين خارج كردفان حوالي واحد مليون نسمة تقريباً بحلول نهاية عام 2001م. عاد حوالي 300,000 نازح محلي إلى جنوب كردفان في الفترة من 2002م وحتى 2004م 51. على أية حال، ظل العديد من الناس حذرين وفضلوا الترقب والانتظار حتى يروا كيف ستتطور الأوضاع في جنوب كردفان. عاد آخرون للخرطوم عندما فشلوا في الحصول على خدمات أساسية في جبال النوبة مثل المياه النظيفة والتعليم وخدمات الرعاية الصحية. في عام 2008م صار النازحين محلياً مسألة مهمة بالنسبة للحركة الشعبية لتحرير السودان خلال فترة الإحصاء والتعداد السكاني العام. دعا نائب الوالي السيد دانيال كودي لمقاطعة الإحصاء والتعداد السكاني العام بحجة أنه غير شامل نظراً لأن عدداً كبيراً من النازحين محلياً لم يعودوا لجنوب كردفان 52. أصبح جلياً أنه بدون عودة النازحين محلياً فإن تعداد النوبة في جنوب كردفان سيكون قليلاً بعد دمج وضم ولاية غرب كردفان التي يهمن عليها المسيرية إلى ولاية جنوب كردفان بموجب اتفاقية السلام الشامل.

2 - إتفاقية السلام الشامل

تم تجديد وقف إطلاق النار في جبال النوبة عدة مرات بينما كان يتم الضغط بشدة على الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان من دول ومنظمات الوساطة للوصول إلى إتفاق. في النهاية تم التوقيع على إتفاقية السلام الشامل في 9 يناير 2005م. تضمنت الإتفاقية بروتوكولات لإقتسام السلطة والثروة وجدول زمني لانتخابات عامة ورئاسية ونصت الإتفاقية على استفتاء لتقرير مصير جنوب السودان. تعهد الطرفان بالعمل سوياً لجعل الوحدة جاذبة 53.

كان مستقبل جبال النوبة أحد آخر المسائل المتوجب حلها. لم يحقق بروتوكول حل النزاع في جنوب كردفان/ولايات جبال النوبة والنيل الأزرق بحسب نصوصه نصف التوقعات التي كان يأمل فيها النوبة (أو المواطنين في النيل الأزرق). وبالرغم من أنه أعطي النوبة حصة معينة في الثروة القومية والتمثيل البرلماني القومي لكنه لم يتضمن استفتاءً بخصوص أين سيتوجه النوبة في حالة انفصال الجنوب (هل

للشمال أم للجنوب أو يصبح للنوبة دولة مستقلة). تم ترك حل المسائل المهمة مثل ملكية الأرض ومستوى الحكم الذاتي وحرية الأديان لإجراءات وترتيبات لاحقة **54**.

ليس هناك من حق لتقرير المصير

المطالبة بحق تقرير المصير نادي بها جميع النوبة المعارضين للحكومة كيفما كانت الإختلافات السياسية أو الشخصية بينهم وسواء كانوا داخل أو خارج الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان: جميعاً كانوا يرغبون في الحصول على فرصة لإبناء النوبة لتقرير مستقبلهم. في حقيقة الأمر ترك عدم إصرار قيادة الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان - المفوضة للتفاوض نيابة عن النوبة خلال مؤتمر جميع النوبة في كاودا عام 2002م **55**- على حق تقرير المصير للنوبة برغم التعهدات السابقة جرحاً عميقاً. شعر الكثيرون بأن الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان قاما ببيع النوبة بثمن بخس. لقد كان الكثيرون متخوفين من أن الجنوبيين لن يسعوا بشكل جاد للمحافظة على وحدة البلاد وإن انفصال الجنوب سيضع النوبة وسط نار المزيد من الصراعات، حتى أن قادة وزعماء النوبة من أمثال عبد العزيز الحلو أو دانيال كودي اللذين كانا عضوين في فريق التفاوض من طرف الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان المكلف بإبرام اتفاقية السلام الشامل لم يخفيا إحباطهما من النتيجة **56**.

في مفاوضات اتفاقية السلام الشامل التي جرت عام 2004م تم تأخير مناقشة قضية النوبة مصحوبة مع قضية النيل الأزرق وقضية أبيي للمرحلة الأخيرة من التفاوض وظلت قضية النوبة إحدى آخر القضايا التي يجب حلها ومعالجتها. تلقائياً تمسكت الحكومة برفضها وتم مقايضة تقرير المصير لأبيي كضمان لعدم انفصال جبال النوبة والنيل الأزرق من السودان. يمكن للمرء أن يتوقع بأن الدكتور جون قرنق أخبر المفاوضين من أبناء النوبة بأن ذلك: "كان أفضل ما استطعنا القيام به" ووعدهم لعمل كل شئ ممكن ضمن صلاحياته - بصفته نائب رئيس السودان والرئيس القادم المحتمل - لتحسين شروط وأحكام الإتفاقية الخاصة بالنوبة والنيل الأزرق من خلال عملية المشورة الشعبية. ومن ثم يحق للنوبة ومواطني النيل الأزرق رفض كامل الإتفاقية أو التوقيع. لقد قاموا بتوقيع الإتفاقية وبعد أشهر قليلة توفي الدكتور جون قرنق في حادث ارتطام طائرة وفي ليلة واحدة تغيرت أولويات الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان لصالح الجنوب أكثر من عموم البلاد **57**.

الإنتخابات والمشورة الشعبية

حسبما إقتضت اتفاقية السلام الشامل، لن يصبح البروتوكول الخاص بجنوب كردفان سارياً إلا بعد إجازته واعتماده بواسطة أعضاء المجلس التشريعي الولائي المنتخبين. ويتم إجراء "المشورة الشعبية" بعد انتخابات المجلس الولائي والمجلس القومي الاتحادي المجدولة في عام 2009م. بعد إجراء "المشورة الشعبية" يحق لممثلي المجلس الولائي في جنوب كردفان إما إجازة واعتماد الاتفاقية كما صيغت في نيفاشا أو إعادة التفاوض مع الحكومة المركزية المنتخبة **58**. هذا الترتيب المعقد جعل نتيجة الإنتخابات أهمية خاصة بالنسبة للأطراف المتنافسة: ستكون للفائز في انتخابات ولاية جنوب كردفان الفرصة لتعديل البروتوكول شريطة أن تكون الحكومة القومية مستعدة لقبول التعديلات. ونتيجة لذلك، فإن التعداد والإحصاء السكاني له أهمية خاصة في جنوب كردفان بينما السياسات القومية تأخذ في الإعتبار جانب الحملة الانتخابية طويلة الأجل والآثار السلبية بشكل كبير.

استعداداً للانتخابات تم إجراء التعداد والإحصاء السكاني القومي في أبريل 2008م. أعلن نائب الوالي دانيال كودي بشكل أولي مقاطعة الإحصاء والتعداد السكاني في ولاية جنوب كردفان وقام لاحقاً بالتراجع عن إعلانه فقط ليدعي بعد ذلك فشل الترتيبات للتعداد والإحصاء السكاني. وشملت أسباب مقاطعة التعداد والإحصاء السكاني عدم الأمن في الولاية وعدم وجود جهود كافية لاستيعاب وعودة النازحين المحليين وعدم وجود نماذج (أرانيك) باللغة الانجليزية للإحصاء والتعداد السكاني. كرد فعل لإعتراضات الحركة الشعبية لتحرير السودان تم إجراء إحصاء وتعداد سكاني جديد في ولاية جنوب كردفان في يونيو 2010م. كانت نتيجة الإحصاء زيادة كبيرة في تعداد السكان حيث ارتفع من 1,406,404 نسمة

إلى 2,508,268 نسمة **59**. بناء على ذلك قامت المفوضية القومية للانتخابات التي مقرها الخرطوم والتي تدير عملية الانتخابات بإعادة توزيع الدوائر الجغرافية في نوفمبر وديسمبر من عام 2010م، وقامت بنقسيم الولاية إلى 32 دائرة انتخابية محابية لحزب المؤتمر الوطني بشكل كبير والذي يترأسه الرئيس البشير وذلك بإنشاء دوائر انتخابية صغيرة نسبياً ستصوت لحزب المؤتمر الوطني ودوائر انتخابية كبيرة تصوت للحركة الشعبية لتحرير السودان **60**.

التباطؤ في تنفيذ اتفاقية السلام الشامل

خلال الفترة الإنتقالية تم تكوين المجلس الولائي لجنوب كردفان بنواب معينين: 45% من الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان و55% من حزب المؤتمر الوطني. تنافس الطرفان لصياغة دستور الولاية وإجازة التشريعات المهمة للولاية لضمان إنتظام الإدارة بشكل سليم. تم بشكل مستمر تأجيل ترتيبات تنفيذ اتفاقية السلام الشامل لعدة أسباب مما تسبب في الكثير من التشويش لنواب المجلس والمواطنين. تحقق بعض التطور في عملية تشكيل وحدات مشتركة لقوات الجيش الحكومي و الجيش الشعبي لتحرير السودان. تم تعيين وتدريب أفراد لقوات الشرطة المشتركة الذين سيتم نشرهم على نطاق عموم ولاية جنوب كردفان. لم يتحقق التكامل الإداري على الإطلاق، واستمرت سياسة الأمر الواقع بالنسبة لدوائر النفوذ المستقلة لكل من الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان بما في ذلك نقاط التفطيش في المعابر والطرق بين المناطق التي تحت سيطرة الحكومة والمناطق التي تحت سيطرة الحركة الشعبية لتحرير السودان **61**. بدأ الأفراد ينتقلون بحرية نوعاً ما وازداد النشاط الإقتصادي وعاد الكثير من المواطنين الى مواطنهم.

على أية حال، توقفت التنمية في الإقليم المنكوب بالحرب بسبب الخصومات السياسية. بموجب اتفاقية السلام الشامل يجب ان يكون منصب الوالي مشغولاً بالتناوب بين الحركة الشعبية لتحرير السودان وحزب المؤتمر الوطني. تولى السيد اسماعيل خميس جلاب المنصب في أول دورة ممثلاً الحركة الشعبية لتحرير السودان. فشل السيد جلاب في الحصول على المخصصات المالية من الخرطوم والمطلوبة لإعادة إعمار المنطقة أو تقديم الخدمات الأساسية للمواطنين. في نهاية فترة ولاية السيد جلاب تم استبداله بالسيد دانيال كودي **62**. آل منصب الوالي لحزب المؤتمر الوطني وأصبح السيد دانيال كودي نائباً للوالي. لم يكن أداء السيد كودي جيداً مما اضطر المجلس الأمني التابع للحركة الشعبية لتحرير السودان في جنوب كردفان باتهامه بإساءة استخدام منصبه. تم استبدال السيد كودي بالسيد عبدالعزيز آدم الحلو. كرد فعل لذلك، قام حزب المؤتمر الوطني بتعيين أحمد محمد هارون، المتهم من قبل محكمة الجنايات الدولية بارتكابه جرائم ضد الإنسانية في دارفور، في منصب والي جنوب كردفان **63**. تلقائياً تم الإفراج عن جميع المخصصات المالية المخصصة لإعادة الإعمار: وتم تشييد الطرق والمستشفيات وتم تسيير رحلات الخطوط الجوية **64**.

بعد فترة انتظار طويلة تم إجراء الإستفتاء المرتبط بالوحدة أو استقلال جنوب السودان في يناير 2011م وصوتت أغلبية الجنوبيين (99%) لصالح الانفصال. لم تسبب نتيجة الإستفتاء دهشة لأي مواطن وكانت ردود الفعل بالنسبة لأبناء النوبة المنضوين تحت لواء الحركة الشعبية لتحرير السودان واضحة: عليهم من الآن فصاعداً تدبير أمورهم. يمكن أن يعتمد الجيش الشعبي لتحرير السودان/شمال على بعض الدعم والإمدادات السرية من رفاق السلاح السابقين ولكنهم سياسياً أصبحوا معزولين.

3 - العملية الانتخابية

تسجيل الناخبين

في جو مشحون بعدم الثقة المتبادل تم تسجيل الناخبين في جنوب كردفان في الفترة من 20 يناير وحتى 12 فبراير 2011م، لاحظ مركز كارتر، بصفته جهة مراقبة للعملية الانتخابية: "العديد من أوجه

القصور التي أثرت على شمولية ونزاهة تسجيل الناخبين وأدت إلى تدني مستوى التسجيل. شمل ذلك فشل المفوضية القومية للانتخابات في تخصيص عدد كافي من فرق التسجيل لإجراء تسجيل شامل لكل الناخبين وإنشاء سجل انتخابي جديد وغياب التعليم المناسب بالنسبة للناخبين لضمان مشاركة كافة الناخبين المؤهلين. [...] طبقاً لتصريحات المفوضية القومية للانتخابات فقد تم تسجيل 642,555 ناخب بما يقل بمائة ألف (100,000) ناخب مقارنة بعدد المسجلين في انتخابات أبريل 2010م". وطبقاً لما أورده مركز كارتر فإن ذلك لا يظهر نزاهة وشفافية كامل العملية الانتخابية **65**.

الإنتخابات ونتائج الإنتخابات

تم إجراء الإنتخابات في 2 مايو 2011م كان هناك ثلاثة مرشحين لمنصب الوالي: أحمد محمد هارون ونائب الوالي عبد العزيز آدم الحلو وتلفون كوكو أبو جلة أحد قادة الحركة الشعبية لتحرير السودان الذي كان معتقلاً في سجون الحركة الشعبية في جوبا. أوردت "المجموعة السودانية للديمقراطية والانتخابات" في بيانها الصادر بتاريخ 12 مايو 2011م والخاص بالانتخابات في ولاية جنوب كردفان قليلاً من المخالفات البسيطة في الانتخابات بولاية جنوب كردفان. عزز ذلك تصريح مركز كارتر الذي أورد بأنه: "رغم حالة عدم الأمن وبعض المخالفات الإجرائية التي أعاققت توفر ضمانات مهمة للعملية الانتخابية، فإن إنتخابات ولاية جنوب كردفان كانت بشكل عام هادئة ويعول عليها. تم إجراء كافة عمليات التصويت والفرز والنتائج بطريقة تتسم بالنزاهة وعدم الحزبية وبانسجام كبير من الأحزاب السياسية الرئيسية" **66**.

أوضحت النتيجة النهائية للانتخابات تقدم لطيف للسيد أحمد هارون بفارق 6,000 صوت من منافسه عبدالعزيز الحلو. بالرغم من أن تصويت الجماهير كان لصالح الحركة الشعبية لتحرير السودان إلا أن الحركة فازت فقط بعشرة (10) دوائر من مجموع اثنين وثلاثين (32) دائرة. أدعت الحركة الشعبية لتحرير السودان بأن هناك تزوير في اجراءات الفرز واعلان القوائم ولكن طبقاً لما أورده مركز كارتر فإن: "فإن معظم هذه الإدعاءات لا يمكن إثباتها ومن المستحيل برهانها وبذلك تم تجاهلها من قبل المفوضية العليا للانتخابات القومية". على أية حال، رفضت الحركة الشعبية لتحرير السودان قبول نتائج الانتخابات ورفضت دعوة الوالي احمد هارون للتفاوض حول اتفاق لإقتسام السلطة **67**.

طرح تقرير منظمة الوادي المتصدع (Rift Valley)، الصادر في أغسطس 2011م بعد شهرين من إندلاع الحرب في جنوب كردفان، أسئلة عن نزاهة وشفافية العملية الانتخابية. لم يورد التقرير دليلاً بأن نتائج الانتخابات تم بالفعل تزويرها ولكن التقرير أظهر بأنه ربما تم تزويرها **68**.

9 - العودة للحرب (2011م – الحرب المستمرة الآن)

1 - النزاع المسلح

الإستعدادات للحرب

بدون أي احتمال لحل سلمي استعدت كل من حكومة السودان والحركة الشعبية لتحرير السودان لأي مواجهة محتملة. في 23 مايو 2011م أرسلت حكومة السودان إنذار نهائي للحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان في جوبا يطلب انسحاب جنود الجيش الشعبي لتحرير السودان قبل 1 يونيو 2011م إلى جنوب حدود شمال وجنوب السودان بترسيم 1956م. أوضح الجيش الشعبي لتحرير السودان بأنه نظراً لان الجنود من أبناء النوبة ليسوا بسودانيين جنوبيين فهي ترى أنه لا مبرر هناك لاستدعاءهم: إنهم ينتمون لشمال السودان. بدأت القوات المسلحة السودانية حشد القوات في جنوب كردفان بينما تموضع المقاتلين من أبناء النوبة المنضوين للجيش الشعبي لتحرير السودان في مناطقهم بالقرب من حدود جنوب السودان **69**.

الجدير بالذكر أنه خلال الفترة الإنتقالية استمر المقاتلون من أبناء النوبة في الجيش الشعبي لتحرير السودان في انتماءهم للجيش الشعبي لتحرير السودان: كانت روايتهم ومعداتهم تأتي من جوبا. سمح ذلك ولعدة سنوات بالتعزيزات العسكرية فيما يتصل بالمعدات والتدريب بأن يقلل من تأثير ميزة القوة العسكرية النسبية للقوات المسلحة السودانية في استخدام الإسناد الجوي.

اندلاع العنف

في 5 يونيو 2011م، اندلع القتال في كادوقلي عاصمة جنوب كردفان. وطبقاً لما أورده الجيش الشعبي لتحرير السودان سعت القوات الحكومية لنزع سلاح جنود الجيش الشعبي في الوحدة العسكرية المشتركة التي أبدت المقاومة مما أدى إلى اندلاع النزاع. وطبقاً لما أورده الحكومة فإن النزاع بدأ عندما قام جنود الجيش الشعبي لتحرير السودان بمهاجمة مركز شرطة. في الساعات والأيام التالية اندلع القتال في العديد من المناطق في جنوب كردفان. وكانت أسوأ الضربات في كادوقلي حيث قامت القوات المسلحة وقوات الأمن بتمشيط المدينة من بيت لبيت بحثاً عن المتعاطفين المعروفين مع الحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان. وأوردت التقارير حدوث إعدامات فورية وهجمات استهدفت قادة وزعماء المجتمع **70**.

كان من الواضح أن الجيش الشعبي لتحرير السودان (لاحقاً عرف بـ "الجيش الشعبي لتحرير السودان-شمال") كان مستعداً: حيث قام بالسيطرة على أجزاء كبيرة من المناطق الريفية وقام بمناوشة القوات المسلحة في كادوقلي . على أية حال، قامت الحكومة بإرسال مزيد من التعزيزات واستطاعت السيطرة على المدن الكبرى والطرق المؤدية للأبيض والدنج وكادوقلي. نشب قتال عنيف للسيطرة على المدن الإستراتيجية مثل برام وتلودي لكن الحكومة استمرت في السيطرة على هذه المدن **71**. حتي فبراير 2018م لم يحقق أي من الطرفين تفوقاً حاسماً بينما ظل التوازن العسكري متساوياً بالنظر للمواد والإمدادات مقارنة بفترات الحرب السابقة في جبال النوبة **72**.

استقلال جنوب السودان

في أقل من شهر بعد اندلاع القتال في جنوب كردفان أصبح جنوب السودان دولة مستقلة. حضر الرئيس السوداني عمر حسن البشير الإحتفالات الرسمية بالاستقلال في جوبا في 9 يوليو 2011م **73**. تم التصريح بكلمات طيبة ولكن لم يصدق أحد بأن دولتي السودان ستكونان جارتين صديقتين في المدى القريب. لم يتم حل العديد من المسائل العالقة بما في ذلك ترسيم الحدود وقضية أبيي ورسوم عبور البترول وبالطبع وضع الحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان في جنوب كردفان والنيل الأزرق **74**. قامت جوبا رسمياً بقطع جميع علاقاتها مع حلفاءها العسكريين والسياسيين السابقين واستمرت الخرطوم في الإصرار بأن الحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال ما زالت تتلقى الدعم والمساندة من جنوب السودان. على أية حال، استمرت دولة السودان ودولة جنوب السودان في صراعها عبر الوكالة حيث قامت دولة السودان بدعم المعارضة المسلحة الجنوبية التي يقودها ريك مشار ضد حكومة جوبا وقامت دولة جنوب السودان بدعم الحركة والجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال ضد حكومة السودان **75**.

في 1 سبتمبر 2011م صارت ولاية النيل الأزرق كذلك مسرحاً للحرب. بالرغم من أن الإنتخابات في هذه الولاية كانت لصالح الحركة الشعبية لتحرير السودان ومرشحها مالك عقار الذي صار والياً لها إلا أن التوترات تصاعدت بسبب أن مالك عقار كان يترأس حزب الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال المتورط بالفعل في نزاع في جنوب كردفان. دخلت القوات المسلحة والجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال في قتال عنيف للسيطرة على الدمازين في 2 سبتمبر 2011م ، وتم إعفاء مالك عقار من منصبه بصفته والياً لولاية النيل الأزرق **76**.

الجبهة الثورية السودانية

في نوفمبر 2011م قامت الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال وحركة العدل والمساواة (حركة من دارفور كانت تحارب الحكومة السودانية لعدة سنوات وشنت هجوماً جريماً على الخرطوم في 2008م) بتوقيع اتفاق رسمي يدمج قواتهما معاً تحت قيادة عبد العزيز آدم الحلو. قامت حركة العدل والمساواة والحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال بشن العديد من العمليات الناجحة المشتركة أو المنسقة في جنوب كردفان **78** وأعلننا عن تأسيس الجبهة الثورية التي تحارب من أجل أهداف قومية للتغيير بهدف الإطاحة بنظام البشير. كانت القوات المشتركة للحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال وحركة العدل والمساواة تقوم بهجمات مباغتة والسيطرة على بعض المدن وإحتلال مدن أخرى وكانت دائماً تفاجئ القوات المسلحة السودانية. الإحتلال قصير الأجل لمدينة أب كرشولا في مايو 2013م دفع الحكومة السودانية للقيام بحملة قومية واسعة لإستقطاب المتطوعين للجيش وقوات الدفاع الشعبي **79**.

الإختلافات العسكرية والأيدولوجية التي استمرت لسنوات بين مختلف أطراف الجبهة الثورية السودانية والتي ظهرت منذ تكوينها أعاققت فعالية الجبهة. الهيمنة الأولية للحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال ورئاسة مالك عقار وعبد العزيز الحلو بصفته القائد العام تنافس عليها قادة الحركات الدارفورية في عام 2015م عندما قاموا بانتخاب الدكتور جبريل ابراهيم خلفاً لمالك عقار. لم تقبل الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال انتقال القيادة للحركات الدارفورية مما أدى إلى إنقسام غير رسمي **80**. جرت محاولات لتسوية الخلافات بين مختلف مكونات الجبهة في عام 2016م **81** لكن تم إجهاضها بصراع داخلي في الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال سيتم مناقشته فيما يلي.

2 – تأثير تجدد الحرب على المواطنين

المواطنین النازحين

قام مئات الآلاف من سكان جنوب كردفان العائدين مؤخراً لمناطقهم بترك مناطق الحرب ونزحوا لمدن الشمال مثل الأبيض والخرطوم ونزح البعض منهم إلى دولة جنوب السودان حيث أصبح معسكر يدا للاجئين مزدحماً بشكل كبير **82**. في عام 2018م نزح حوالي 110,000 لاجئ من جنوب كردفان للعيش في معسكر يدا ومعسكرات أجونق ثوك وبامير التي تم تأسيسها مؤخراً **83**.

في السنوات الأولى من الحرب الثانية أدى القصف العشوائي بالقنابل لأهداف مدنية بواسطة القوات الجوية السودانية إلى قيام السكان المتواجدين في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال بترك قراهم والاحتماء بالكهوف في الجبال التي قد توفر بعض الملاذات الآمنة. كان النشاط الزراعي محدوداً مما أدى إلى عدم كفاية المحاصيل ومجاعة واسعة الإنتشار. تأثرت خدمات الرعاية الصحية والتعليم بشكل كبير **84**. منذ قيام الحكومة بإعلان وقف نار من جانب واحد في يونيو 2016م، وتبعها الجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال، قام الطرفان بالتوقف عن الأعمال العدائية. على أية حال، لم تتحسن الأوضاع بالنسبة للسكان المتواجدين في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال وتسببت الأمطار القليلة في فشل موسم الحصاد في عام 2017م بشكل عام مما أجبر مئات الآلاف من السكان للبحث عن الإغاثة والمساعدات الإنسانية في المناطق التي تحت سيطرة الحكومة **85**.

عدم إيصال الإغاثة والمساعدات الإنسانية

كما كان الحال في الحرب السابقة لم تسمح الحكومة السودانية لمنظمات الإغاثة بالعمل في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال لرفع معاناة المجتمعات المتأثرة بالمجاعة. جميع المفاوضات المتصلة بإيصال الإغاثة كانت مرتبطة بالأجندات السياسية والإستراتيجية لكل من الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال. تصر الحكومة السودانية على أن الإغاثة والمساعدات

الإنسانية للمناطق التي تحت سيطرة الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال يجب أن تمر عبر مراقبة المسؤولين الحكوميين حتى لا يستفيد منها جنود الجيش الشعبي لتحرير السودان – شمال بينما تطلب الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال بإيصال ما لا يقل عن 20% من الإغاثة والمساعدات الإنسانية من مناطق لا تخضع لسيطرة الحكومة - بما يعني من خارج البلاد **86**. إن المقترح الذي قدمته الولايات المتحدة في عام 2016م للسماح لمنظمة الإغاثة الأمريكية (USAID) بإيصال مساعدات طبية للمدنيين في المناطق التي تحت سيطرة الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال بعد تفتيشها بواسطة المسؤولين الحكوميين تم رفضه من قبل الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال مما تسبب في إحباط المجتمع الدولي وخلق شكوكاً في التزام الحركة الشعبية لتحرير السودان - شمال برعاية مصالح المواطنين التي تدعي بأنها تمثلهم **87**. تمت جولة جديدة من المفاوضات حول إيصال الإغاثة والمساعدات الإنسانية في فبراير 2018م ولكن تم إجهاضها بعد ثلاثة أيام بدون أن تحقق أى نتيجة **88**.

3 - المآزق السياسي

الإنقسام الداخلي في الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال

في مارس 2017م قدم عبد العزيز الحلو استقالته من منصب نائب رئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان - شمال بسبب عدم موافقته على السياسة التي يتبناها رئيس الحركة مالك عقار وأمينها العام ياسر عرمان اللذين اتهمهما بالتلاعب بمطالبة الحركة الشعبية بحق تقرير المصير. عندما وقف السيد جقود مكواري رئيس أركان الجيش الشعبي لتحرير السودان - شمال ونائبه عزت كوكو إلى جانب عبدالعزیز الحلو انقسمت الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال إلى جناحين. أدت المناورات السياسية اللاحقة إلى مساندة موقف مالك عقار وياسر عرمان بشكل فعال لكنها أضعفت كذلك موقف الحركة الشعبية لتحرير السودان - شمال بشكل كبير **89**. بانفصاله من رفاق السلاح في النيل الأزرق فقد اتخذت الحركة الشعبية لتحرير السودان - جناح عبد العزيز الحلو صبغة أكثر جهوية. أصبحت المطالبة بحق تقرير المصير أقل إقناعاً منذ أن أدى استقلال جنوب السودان إلى خلق الدولة الأكثر "هشاشة" على مستوى العالم **90**. في نوفمبر 2017م اندمجت الحركة الشعبية لتحرير السودان شمال – جناح مالك عقار مع "الحركة الشعبية لتحرير السودان – الأغلبية الصامتة" **91** التي يقودها والي جنوب كردفان السابق اسماعيل خميس جلاب الذي تم ابعاده من الحركة الشعبية لتحرير السودان - شمال في عام 2014م بسبب تعاونه مع الحكومة **92**. يعتبر اسماعيل خميس جلاب أول قيادي رفيع المستوى في الحركة الشعبية لتحرير السودان يسقط من قيادة الحركة ولا يمتلك قوات محاربة. على أية حال، إن انعدام الوحدة بين أبناء وفصائل وتنظيمات النوبة تزيد من تعقيد قضية النوبة.

توقف المفاوضات

بالرغم من أن الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال وحكومة السودان قاما في عام 2016م بتوقيع اتفاق خارطة الطريق الذي طرحته اللجنة التنفيذية رفيعة المستوى بالإتحاد الأفريقي **93** إلا إنه لم يحدث تقدم في المفاوضات منذ ذلك الحين. ظلت الشروط المرتبطة بإيصال الإغاثة والمساعدات الإنسانية حجر عثرة في طريق المفاوضات وباستمرارية عدم إتفاق لخلق أرضية مشتركة للإصلاح السياسي تزداد الأمور تعقيداً. وتحت ركام هذه المسائل هناك عدم ثقة واختلافات لا يمكن تسويتها. لا تعتقد الحركة الشعبية لتحرير السودان - جناح عبد العزيز الحلو بأن حزب المؤتمر الوطني الحاكم سيتنازل عن السلطة طوعياً أو يوافق على دستور علماني للسودان أو تقرير المصير لجنوب كردفان/ جبال النوبة. قد تكون الحركة محقة في ذلك.

الحواشي والمراجع

1. Beshir, M.O.: The Southern Sudan, Background to Conflict. 1968.
2. Ibid.
3. Iten, O. :Fungor, Ein Nuba Dorf wird ruiniert, 1983.
4. Simeon, J.L.: Butrus Tia Shukai, 1931 to 1985, in the Dictionary of African Christian Biography: <https://dacb.org/stories/sudan/butrus-tia-shukai/> [accessed 12 February, 2018]
5. Stevenson, A.C.: The Nuba People of Kordofan Province, 1984.
6. Yousif Kuwa interviewed by Stephen Amin: "Life is a school and with great lessons" Africanews Issue 61, April 2001.
7. Baumann, G.: National Integration and Local Integrity, the Miri of the Nuba Mountains in the Sudan, 1987.
8. Mohamed Salih, M.A.: Generation and Migration: Identity Crisis and Political Change among the Moro of the Nuba Mountains; GeoJournal 25.1 51-57, 1991.
9. Baumann, 1987.
10. Harragin, S.: Nuba Mountains Land and Natural Resources Study; Part I – Land Study, 2003.
11. Riefenstahl, L.: Die Nuba von Kau, 1976.
12. Baumann, 1987.
13. Saavedra, M.: Ethnicity, resources and the central state: politics in the Nuba Mountains, 1950 to the 1990s; Kordofan Invaded, Peripheral and Social Transformation in Islamic Africa (Stiansen and Kevane ed.), 1998, pp.223-253.
14. Aguda, O.: Arabism and Pan-Arabism in Sudanese Politics; The Journal of Modern African Studies, Vol. 11, No. 2 (Jun., 1973), pp. 177-200.
15. Kadouf , H.A.: Marginalization and Resistance: The Plight of the Nuba People; New Political Science, Volume 23, Number 1, 2001.
16. African Rights: Facing Genocide, the Nuba of Sudan, 1995. Also Marshall, M.G.: Conflict Trends in Africa, 1946-2004: A Macro-Comparative Perspective; CSP Centre for Systemic Peace. And: Gandul, I.G.: Reconciliation and local unity in Southern Kordofan , 5/15/2005: <http://sudaneseonline.com/earticle2005/may15-19049.shtml> [accessed 9 February, 2018]
17. As related by Kamil Kuwa Mekki.
18. Op 't Ende, N: Proud to be Nuba, 2007, interview with Yousif Kuwa Mekki.
19. Op 't Ende, 2007, interview with Daniel Kodi Angelo.
20. Op 't Ende, 2007, interview with Philip Abbas Ghaboush.
21. Op 't Ende, 2007, interview with Daniel Kodi Angelo.
22. Harragin, 2003
23. Saavedra, 1998
24. Duany, W.: contribution the U.S. Institute of Peace Conference 'Religion, Nationalism, and Peace in Sudan' Tuesday, September 16, 1997. Also: Interview with John Garang in Heritage, Khartoum, Nov. 2, 9 and 16, 1987.
25. Op 't Ende, 2007, interview with Philip Abbas Ghaboush.
26. Op 't Ende, 2007, interview with Daniel Kodi Angelo.
For the role of Dr. Lam Akol I relied on private correspondence with K. Ajawin, brother to Joanis Ajawin and Lam Akol. Much of the information might be found in 'Inside an African Revolution' by L. Akol. Confirmation of some of the events and additional information come from an Interview with Commander Edward Lino, Sudan Vision, February 24, 2004
27. Op 't Ende, 2007, interview with Yousif Kuwa Mekki.

28. Op 't Ende, 2007, interviews with Philip Abbas Ghaboush, Daniel Kodi Angelo and Mudir Batallah Kapitulek
29. *ibid.*
30. Kadouf, H.A.: United We Stand and Divided We Fall; The Nuba Vision, Vol. 1, Issue 1, June 2001
31. African Rights, 1995, for a detailed report of recruitment and advance of the SPLA in the Nuba Mountains and the consequences. Also Proud to be Nuba, 2007, and Mohamed Salih, M.A.: Generation and Migration: Identity Crisis and Political Change among the Moro of the Nuba Mountains; GeoJournal 25.1 51-57, 1991
32. African Rights, 1995.
33. Adam, Biraima M.: contribution to Wikipedia page on the Hawazma: https://en.wikipedia.org/wiki/Hawazma_tribe [accessed 10 February, 2018]. Also: private correspondence with the author, 2007.
34. OLS Operation Lifeline Sudan. A Review, July 1996.
35. African Rights, 1995.
36. African Rights, 1995. Also Mohamed Salih, M.A.: Resistance and Response: Ethnocide and Genocide in the Nuba Mountains, Sudan; Geo-journal 36, no. 15: 71–78, 1995. Also Meyer, Gabriel: War and Faith in Sudan, 2005. And Africa Watch: Sudan. Destroying Ethnic Identity: The Secret War against the Nuba, 1991.
37. As Timo, my guide in 2000, told me: “Khartoum is in our blood”.
38. Operation Lifeline Sudan. A Review, 1996.
39. Next Year in Kadugli; Africa Confidential January 1998, Vol 39 No 1.
40. Op 't Ende, 2007, interview with Neroun Philip.
41. Suliman, M.: The Nuba Mountains of Sudan: Resource access, violent conflict, and identity, 1999 (in: Cultivating Peace: Conflict and Collaboration in Natural Resource Management, edited by Daniel Buckles).
42. African Rights, 1995.
43. Op 't Ende, 2007: interview with Yousif Kuwa.
44. Flint, J.: Democracy in a War Zone: the Nuba Parliament, in ‘The right to be Nuba, the Story of a Sudanese People’s Struggle for Survival’ published by the International Nuba Coordination Centre, 2001.
45. NRRDO: Emergency Report on Buram County, January 25, 2001.
46. Op 't Ende, 2007: interview with Suleiman Musa Rahhal.
47. Op 't Ende, 2007: interview with Neroun Philip.
48. UNCERO: Report of an Inter-Agency Assessment Mission to the Nuba Mountains of South Kordofan, Sudan, 11 November, 1999.
49. World Food Program: WFP Emergency Report No. 46 of 2001, 16 November, 2001.
50. Nuba Mountains Cease-Fire Agreement: <https://reliefweb.int/report/sudan/sudan-nuba-mountains-cease-fire-agreement> [accessed 7 February, 2018]
51. International Organization for Migration: IDP Intentions Concerning Return to their Places of Origin. Sample Survey. Khartoum, North, East, Central Sudan and Nuba, Khartoum, June 2005. http://www.iomjapan.org/archives/Volume1_IDP_Survey_Results.pdf [accessed 7 February, 2018] Also: UNHC/NMPACT, Returnee Data Collection in Southern Kordofan at Five Entry Points, 1st May-3rd June, 2005.
52. Sudan Tribune, 22 April, 2008: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article26859> [accessed 7 February, 2018]
53. The Comprehensive Peace Agreement Between The Government of The Republic of The Sudan and The Sudan People's Liberation Movement / Sudan People's Liberation Army: <https://peaceaccords.nd.edu/sites/default/files/accords/SudanCPA.pdf> [accessed on 7 February, 2018]

54. Op 't Ende, 2007, interview with Neroun Philip
55. Summary Report of the First All Nuba Conference, compiled by the All Nuba Conference Chairing Committee and circulated on 20th December, 2002:
<http://www.occasionalwitness.com/Articles/20021220.htm> [accessed 13 February, 2018]
56. Op 't Ende, 2007, interview with Daniel Kodi
57. See for example the Global Observatory: <https://theglobalobservatory.org/2015/05/south-sudan-kiir-machar-igad/> [accessed 7 February, 2018]
58. Comprehensive Peace Agreement, Chapter V (The Resolution of the Conflict in Southern Kordofan and Blue Nile States, signed at Naivasha, Kenya on 26th may 2004), Article 3.
59. Republic of Sudan, Central Bureau of Statistics:
<http://cbs.gov.sd/en/files.php?id=7#&panel1-3> [accessed 7 February, 2018] and UNMIS, South Kordofan Election, FAQ: https://unmis.unmissions.org/sites/default/files/faq-sk-elections_-_1_may_2011-formatted.pdf [accessed 12 February, 2018]
60. 43. Disputed Votes, Deficient Observation, The 2011 election in South Kordofan, Sudan; Rift Valley Institute, August 2011: <http://riftvalley.net/download/file/fid/861%20> [accessed 8 February, 2018]
61. Stability Threats in South Kordofan, Sara Pantuliano in African Arguments, August 15, 2008: <http://africanarguments.org/2008/08/15/stability-threats-in-south-kordofan/> [accessed 7 February, 2018]
62. Sudan Tribune, 21 February 2009: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article30246> [accessed 7 February, 2018]
63. Reuters, 9 May, 2009: <https://www.reuters.com/article/idUSL8968856> [accessed 7 February, 2018]
64. Archived SUNA articles at the Nuba Mountains Homepage:
<http://www.occasionalwitness.com/Articles/20100803a.html>,
<http://www.occasionalwitness.com/Articles/20100804b.html> and
<http://www.occasionalwitness.com/Articles/20100808.html> [accessed 17 February, 2018]
65. Carter Center, 28 April, 2011: <https://www.cartercenter.org/resources/pdfs/news/pr/sudan-southkordofan-042811.pdf> [accessed 8 February, 2018]
66. Carter Center, 18 May, 2011: <https://www.cartercenter.org/resources/pdfs/news/pr/sudan-southkordofan-051811.pdf> [accessed 8 February, 2018]
67. Sudan Tribune, 15 May, 2011: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article38920> [accessed 17 February, 2018]
68. Disputed Votes, Deficient Observation, The 2011 election in South Kordofan, Sudan; Rift Valley Institute, August 2011: <http://riftvalley.net/download/file/fid/861%20> [accessed 8 February, 2018]
69. The New York Times, 29 May, 2018:
<http://www.nytimes.com/2011/05/30/world/africa/30sudan.html> [accessed 8 February, 2018]
70. Human Rights Watch, 10 June, 2011: <https://www.hrw.org/news/2011/06/10/un-au-urge-end-sudanese-abuses-s-kordofan> [accessed 8 February, 2018]
Also: Sudan Reeves, 7 June 2011: <http://sudanreeves.org/2011/06/07/violence-in-south-kordofan-what-is-being-reported-june-7-2011-4pm-est/> [accessed 8 February, 2018]
71. Small Arms Survey, 18 November, 2011:
<http://www.smallarmssurveysudan.org/fileadmin/docs/archive/other/south-kordofan/HSBA-Conflict-in-South-Kordofan-2011.pdf> [accessed 8 February, 2018]
72. International Crisis Group, Sudan's Spreading Conflict (I): War in South Kordofan, 14 February, 2013: <https://www.crisisgroup.org/file/1262/download?token=7Q7bLz16> [accessed 8 February, 2018]
73. The Guardian, 10 July, 2011: <https://www.theguardian.com/world/2011/jul/10/south-sudan-celebrates-independence> [accessed 8 February, 2018]

74. The Guardian, 30 June, 2011: <https://www.theguardian.com/global-development/2011/jun/30/south-north-sudan-dispute-issues> [accessed 8 February, 2018]
75. Sudan Tribune, 11 May, 2013: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article46540> [accessed 8 February, 2018] Also: Sudan Tribune, 25 October, 2016: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article60636> [accessed 8 February, 2018] Also: Xinhua, 25 April, 2017: http://www.xinhuanet.com/english/2017-04/25/c_136235569.htm [accessed 8 February, 2018]
76. International Crisis Group, Sudan's Spreading Conflict (II): War in Blue Nile, 18 June, 2013: <https://www.crisisgroup.org/file/1263/download?token=ffCmXXUP> [accessed 8 February, 2018]
- 77: Reuters, 10 May, 2008: <https://www.reuters.com/article/idUSMCD056199> [accessed 8 February, 2018]
- 78: Sudan Tribune, 18 July, 2011: <http://www.sudantribune.com/JEM-and-SPLA-attack-Sudan-s-army,39568> [accessed 8 February, 2018]
79. The Sudan Revolutionary Front: Its Formation and Development, Small Arms Survey, October 2014: <http://www.smallarmssurveysudan.org/fileadmin/docs/working-papers/HSBA-WP33-SRF.pdf> [accessed 8 February, 2018]
80. The Sudan Revolutionary Front: comrades in squabble, Magdi el Gizouli November 9, 2015: <http://africanarguments.org/2015/11/09/the-sudan-revolutionary-front-comrades-in-squabble/> [accessed 8 February, 2018]
81. Sudan Tribune, 20 January, 2016: http://www.sudantribune.com/spip.php?page=imprimable&id_article=57760 [accessed 8 February, 2018] Also: Sudan Voices, 10 February, 2016: <http://sudanvoices.com/?p=22742> [accessed 8 February, 2018]
82. Al Jazeera, 15 July, 2012: <https://www.aljazeera.com/indepth/features/2012/07/201271293447392905.html> [accessed 8 February, 2018] Also:
83. UNHCR, 31 January, 2018: file:///C:/Users/Nanne/Downloads/SSD_REF_Statistics_31January2018v2.pdf [accessed 8 February, 2018]
84. The Sudan Consortium, May 2013: The impact of aerial bombing attacks on civilians in Southern Kordofan, Republic of Sudan; A Briefing to the Summit of the African Union http://www.sudanconsortium.org/darfur_consortium_actions/reports/2013/Sudan%20Consortium%20AU%20Summit%20May%202013.pdf [accessed 17 February, 2018] Also: International Refugee Rights Initiative / National Human Rights Monitoring Organisation, April 2015: "We just want a rest from war." Civilian perspectives on the conflict in Sudan's Southern Kordofan State <https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/TiredofWar.pdf> [accessed 17 February, 2018]
85. Radio Dabanga, 11 June, 2017: <https://www.dabangasudan.org/en/all-news/article/more-nuba-flee-from-splm-n-areas-in-south-kordofan> [accessed 17 February, 2018]
86. Radio Dabanga, 24 January, 2017: <https://www.dabangasudan.org/en/all-news/article/berlin-talks-between-sudan-govt-splm-n-broken-off> [accessed 19 February, 2018]
87. Reuters, 18 January, 2017: <https://www.reuters.com/article/us-usa-sudan-envoy/u-s-envoy-warns-against-being-too-trusting-of-sudans-armed-opposition-idUSKBN15232E> and Sudan Tribune, 25 January, 2017: <http://sudantribune.com/spip.php?article61494> [accessed on 19 February, 2018]

88. Sudan Tribune, 1 February, 2018: <http://www.sudantribune.com/spip.php?article64625> and Sudan Tribune, 4 February, 2018: <http://sudantribune.com/spip.php?article64648> [accessed 19 February, 2018]
89. Africa is a Country, 27 July, 2017: <http://africasacountry.com/2017/07/sudan-the-second-time-as-farce/> and Enough Project, July 2017: 'A Question of Leadership: Addressing a Dangerous Crisis in Sudan's SPLM-N' https://enoughproject.org/wp-content/uploads/2017/07/QuestionofLeadership_July2017_Enough_web.pdf [both accessed 19 February, 2018]
90. Fund for Peace, 10 May, 2017: Fragile States Index Annual Report 2017
91. Sudan Tribune, 15 November 2017: <https://www.sudantribune.com/spip.php?article64017> [accessed 19 February, 2018]
92. Catholic Radio Network, 31 January, 2014: <http://catholicradionetwork.org/?q=node/13199> [accessed 19 February, 2018]
93. Sudan Tribune, 8 August, 2016: <http://sudantribune.com/spip.php?article59869> [accessed 20 February, 2018]

* المؤلف: ناني أوبت انده:

- بعد تخرجه من "أكاديمية هيرتوجنبوش للفنون المرئية" في عام 1995م قام نان أوبت انده (مواليد 1970 م، هولندا) بالعمل في مركز لطالبي اللجوء. شعر أنده بتعاطف مع اللاجئين السودانيين، وقام بتصوير العديد من المناسبات الخاصة بقضايا سودانية: قضايا حقوق الإنسان، الحرب في الجنوب، الحرب في جبال النوبة ولهذا السبب دعاه النوبة في الحركة/الجيش الشعبي لتحرير السودان للحضور للسودان لتوثيق الحرب الأهلية.
- ذهب أنده لجبال النوبة لأول مرة في عام 1977م ومكث هناك لمدة شهرين، وعاد إلى جبال النوبة في عام 1998م وعام 2000م. لقد تم عرض الصور والرسومات التي قام بها في العديد من المؤسسات وتم نشر صورته في العديد من المجلات ومن ثم تبنت بعض المجلات قضية النوبة وأولت محطات التلفزيون المحلية اهتماماً كبيراً بقضية النوبة.
- لإعاشة أسرته قام انده بالعمل مصوراً فوتوغرافياً متفرغاً. قام انده بتصميم موقع جبال النوبة في الإنترنت ولم يتمكن من زيارة جبال النوبة لعدة سنوات حتى أبريل 2006م عندما رجع للسودان لكتابة كتاب عن كفاح النوبة ضد الحكومة. جعلت اتفاقية السلام المبرمة في عام 2004م السفر سهلاً للسودان حيث وجد معظم أصدقاءه أحياء وبحالة جيدة. قام انده بإجراء العديد من المقابلات وأخذ المزيد من الصور التي أصبحت لاحقاً الأساس لكتابه: "أنا فخور بكوني نوباوي" الذي تم نشره في يوليو 2007م.
- كان انده مهتماً بالتوترات التي صاحبت مشكلة أبيي فرجع إلى جبال النوبة في عام 2007م للتقصي عن مؤشرات الإلتزام بتنفيذ اتفاقية السلام الشامل. كان انده يكتب للصحيفة الهولندية اليومية "تراو" وتقارير عن العديد من المنظمات الطوعية العاملة في جبال النوبة. ومنذ ذلك الوقت ظل يتابع التطورات المأسوية في جنوب كردفان من على البعد.
- يعمل انده حالياً بصفته فنان وكاتب وأمين مكتبة.

يمكن الوصول إلى المؤلف على حسابه الإلكتروني: info@occasionalwitness.com

** المترجم : غانم سليمان غانم

- عمل مفتش تنمية وتخطيط اقتصادى بوزارة التخطيط القومي السودانية، ومترجم وإداري بمجموعة دله القابضة، واختصاصي استثمار بشركة البركة للاستثمار والتنمية، ومسئول أول صناديق استثمارية بشركة التوفيق للصناديق الاستثمارية المحدودة وشركة إتقان كابيتال السعودية.
- مترجم وصحفي غير متفرغ.
- حاصل على ماجستير إدارة الأعمال من جامعة الجزيرة وبكالوريوس الإقتصاد من جامعة الخرطوم.
- ترجم العديد من الكتب التي تشمل:

1. "النوبيون العظماء" ، لدروسيلا دونجي هيوستن.
2. "العولمة والشراكة المفيدة والحكم الرشيد"، للدكتور مهاتير محمد.
3. "مهارات الإتصال"، لسام ديب وليلي سوزمان.
4. "إفساد أمريكا"، لكاثرين يورिका.

- بالإضافة إلى ترجمة مئات المستندات والمقالات والموضوعات في مجال الصناعة المالية والاستثمارية الإسلامية، وشئون الاقتصاد والسياسة في السودان، والإسلام والولايات المتحدة الأمريكية والشئون الدولية.
- ألف كتاب "نماذج تطبيقية فى الترجمة".

يمكن الوصول إلى المترجم على حسابه الإلكتروني: g_ghanim@hotmail.com.